زيد مطيع دمّاج

الانبهار والدّهشة







رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الانبهار والدهشة

زيد مطيع دماج

الانبهار والدهشة



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

AMAZEMENT & ASTONISHMENT

BY:

ZAID MOUTI' DAMMAJ

First Published in Mars 2000

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 480 2

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٠

الإهداء

إلى

همدان دماج ..

الشاعر والقاص المبدع ...

المحتويات

تقديم

قليل هم الكتاب الذين تقرأ لهم وتحب أن تلتقيهم لتزداد بهم معرفة ولهم محبة. وزيد مطيع دماج واحد من هؤلاء، تقرأه فيغمر وجدانك بالصدق والجمال وتلقاه فيغمرك بفيض من صداقته ورحابته ومحبته. ومنذ التقيته لأول مرة في مطلع الستينيات بعد قراءتي لمحاولاته القصصية الأولى لم تفترق مواقفنا ولا رؤانا فقد آنست فيه الصديق الودود الحفي بأصدقائه والوفي لهم، ومنذ ذلك الحين وهذه الصورة تزداد وضوحاً وإشراقاً.

ومن حقي، كما هو من حقه علي ـ في بداية مقدمتي لكتابه الجديد ـ الاعتراف بأنه نموذج فريد بين كل الأصدقاء في وفائه ورهافة شعوره ونبله الأخوي، هذا النبل الذي يجعل منه إنساناً ودوداً متوهجاً لا يتسلل الفتور إلى قلبه، رغم التحولات والتبدلات النفسية والمزاجية التي تعتري غالبية البشر بين حين وآخر، ورغم المتاعب والأمراض التي أنهكت الجسد الصبور لكنها لم تقترب من مجال الروح الفتية المرحة المترعة بالمودة والحنان، ولم تتغلب على أحلام تلك الروح وطموحاتها اللامحدودة. ولن أنسى الصورة التي رسمها له أحد الأساتذة الأشقاء بعد زيارة قصيرة لزيد في منزله وهو يعاني أوجاع مرض مرهق يجعله ينسى معارفه وتلتبس عليه أسماؤهم وشخوصهم، قال ذلك الأستاذ: يا له من إنسان رائع يحمل روحاً نقية

مبتهجة وإرادة تسخر من الألم، لقد عرفني بعد عشرة أعوام من لقائنا الأول وتحدث معي حول قضايا كانت بالنسبة إليَّ قد صارت ضمن أرشيف النسيان!!

هذا هو زيد مطيع دماج، الكاتب الفنان الذي ينتمي إلى جيل الصبر والمعاناة، جيل التنوير والحرية والتطلع نحو حياة كريمة خالية من القمع والحقد والتخلف وهذا الجيل هو الذي تكون فكرياً وأخلاقياً في زمن التحولات العظيمة، زمن جمال عبد الناصر والثورة العربية وما رافقهما من ملاحقة للاستعمار وأذنابه من طغاة وعملاء وحراس لأوثان التخلف والظلام.

وما اللوحات التالية المرسومة بالكلمات في هذا الكتاب سوى الدليل على الهموم الباكرة التي أرهقت كاهل زيد وأبناء جيله ممن هالهم أمر وطنهم الذي بقي إلى مطلع الستينيات صورة مؤلمة لمتحف كبير وفريد من نوعه للتخلف البشري. ومن ذلك المتحف العجيب اغترف زيد الألوان وأجاد التقاط المفارقات وقدم للقارىء هذه اللوحات المتميزة التي توقف بها عند الطريف والمعبر عن الموقف الإنساني العميق الذي يرتسم في الذاكرة ولا يبرحها، ومن تحصيل الحاصل القول بأن العشرات قد كتبوا عن هذه المرحلة وبتفصيلات دقيقة لكن ما كتبه زيد في هذه اللوحات المكثفة يختلف كثيراً ويجعل القارىء يطالب بالمزيد لاستكمال بقية المراحل وإضاءتها بمزيد من حالات الدهشة والانبهار، علماً بأنه في هذا الزمن الصعب يصبح التذكر واجباً وضرورة وطنية فربما كان في مقدور هذا النوع من التذكر العفوي التلقائي إرسال شعاع من الأمل المضيء إلى عقول تكاد تفقد توازنها، وما هو بمثابة المواساة لمن تبقى مؤمناً من أبناء الجيل الذي بدأت التراجعات تسحقه وتهز ثوابته.

ومن السهل على القارىء أن يتبين أن زيد مطيع الكاتب الفنان الذي نجح في أن يسكب روحه الخاصة في كتاباته وأن يعكس في أعماله القصصية صورة الواقع الاجتماعي عن إنسان الأربعينيات والخمسينيات من خلال المزج بين الحياة والفن والواقع والخيال، ووضع القارىء وجهاً لوجه إزاء

كل ما كان يحدث وكأنه ـ أي القارىء ـ أمام مرآة صافية لا تخفي شيئاً، أقول إنه من السهل على القارىء أن يتبين أن زيداً الكاتب الفنان يأتي اليوم ليعكس أصداء من سيرته الذاتية في هذه اللوحات البديعة التي يربط بها جميعاً خيط من الصدق والواقعية وآخر من فن القص الذي برع فيه وأجاد.

وإذا اصطلحنا على أن هذا النوع من الكتابة أشبه بالمذكرات أو السيرة الذاتية فإننا لا بد أن ندرك الكيفية التي استطاع بها زيد أن يحولها من مذكرات ذاتية تعرض لنا مرحلة من حياته المبكرة إلى مذكرات عامة، ومن سيرة شخصية إلى سيرة التطورات التي لحقت بالبلاد ابتداء من مغادرته القرية إلى «تعز» ووقوفاً عند المناظر المؤذية للقلب والضمير كما رصدها في عودته الأولى إلى البلاد بعد أن أمضى سنوات في مصر طالباً في المرحلتين الإعدادية، والثانوية ورأى الفارق العظيم بين شعوب تعيش عصرها وشعوب مكرهة على أن تعيش في عصور بائدة أسدل الزمان عليها ستائر النسيان.

وإني لمدين للحظ السعيد الذي جعلني أقرأ هذه اللوحات قبل أن يتم جمعها للنشر في كتاب، ومع ذلك فإنني أمنّي النفس بالعودة إلى قراءتها مرات ومرات بعد أن يتم ظهورها بين دفتي كتاب ليس لأنها تسجيل أمين لجزء من حياتنا وحسب وإنما لكونها أيضاً مرسومة بريشة فنان بارع وقادر على استحضار مشاهد وصور عفوية من طفولته وشبابه الباكر وتوضيحها بأسلوبه الخاص القائم على البساطة والخالي من التعقيد والمبالغة.

وهنا يأتي دور الإشارة إلى عنوان الكتاب (الانبهار والدهشة) وهو مأخوذ من عنوان الجزء الثاني في هذا الكتاب الذي يتألف من جزئين أحدهما يتناول انطباعات ابن القرية عن «تعز» عاصمة اليمن طوال حكم الإمام أحمد حميد الدين (٤٨ ـ ١٩٦٢) والجزء الآخر عن «مصر» وفي هذا الجزء الأخير يتحدث زيد عن رحلته إلى مصر للدراسة وما أصابه من حالات الانبهار والدهشة. طالب في الخامسة عشرة من عمره يركب الطائرة ويحلق في أجواء مصر مفتوناً بالخضرة التي رسمها النيل ولا يكاد

يصل إلى المطار حتى تستقبله القاهرة بكل ما ادخرت لأمثاله من مفاجآت سارة ومدهشة.

لقد أدرك زيد وهو يعبر الضفة الغربية من البحر الأحمر إلى مصر عبد الناصر أنه انتقل من زمن جامد ميت إلى زمن ينبض بالحركة والحياة، ومن أرض تشكو الرتابة إلى عالم يفيض بالحيوية والنماء، وهنا خلاصة الدهشة والانبهار.

د. عبد العزيز المقالح

كلية الآداب ـ جامعة صنعاء

في ٧ ـ ٢ ـ ١٩٩٩م

مقدمة

لم تعش في ذاكرتي أي مدينة كمدينة تعز، هذه المدينة الرائعة بمآثرها العظيمة التي «لم يخلق مثلها في البلاد»، عامرة بمدارسها ومساجدها وقبابها وأوليائها الصالحين، كانت مركزاً للملوك وسلاطين ومصلحين عظماء على مرّ التاريخ. ولم تخمد شعلتها وتنطفىء إلاّ بعدما تسلمها الإمام يحيى وبنوه من الأتراك في بداية القرن العشرين. تعج أسواقها بالناس والمزارعين القادمين من القرى والهابطين من «صبر». جعلها الإمام أحمد عاصمة لمملكته بعد أن أباح صنعاء للنهب عقب فشل ثورة ١٩٤٨، رابضة تحت قبة من الوباء والمرض والفقر، سمة تلك المرحلة. ولأنني كنت صبياً قادماً من الريف دخل إلى فضاء أوسع وأكبر من قريته كان لا بد أن أدهش بانبهار لأشياء لم تكن تخطر على بالي.

فهناك يجلس الساحر علي خالد يستظل تحت شجرة الطولقة العملاقة وها هو معاوية المجنون يصيح بأعلى صوته: «جبل داكي على جبل»! يجتاز المقهى الوحيد المكتظ بالدراولة (السائقين) المحيطين (بالرصابي) يواسونه ويقدمون له حلولاً لشاحنته المعطلة. وفي وسط الإعدام «العرضي» يقف الوشاح سياف الإمام بسيفه الذي يهوي به على رقاب الأحرار. وفي الأعلى تقع قلعة القاهرة تطل بسورها الضخم على المدينة وعلى الجبال والقرى الحزينة، وعلى سطحها تتمرجح أرجل (الرهائن) بينما ترنو أعينهم

الصغيرة إلى البعيد، كلٌّ يبحث عن قريته البعيدة تعز. مدينة أسطورية عششت كحمامة وديعة في خيالي منذ الطفولة والصبا، تبيض فيه روايات وقصصاً لا تنضب حتى اليوم.

الفصل الأول

كتاب تعز

سور تعز

كان سورها العظيم المشيّد بالحجارة من الخارج والداخل بعرض يسمح بتحرك الجنود بمعداتهم ويكاد الآن يسمح بمرور المصفحات لمتانته، يحيط بالمدينة من كل الجوانب ببابيه، وهما باب (موسى) و(الباب الكبير) اللذان كانا ومازالا آية رائعة لفن العمارة اليمنية، وعلى بعد كل خمسين متراً تبرز منه (نوبة) شبيهة بالقلعة. ويتجه مسار هذا السور مرتفعاً وحاضناً للمدينة صوب قلعة (القاهرة) الجبارة التي تطل على المدينة شامخة وحارسة لها كأنها (أبو الهول) حارس أهرامات (الجيزة) بمصر.

لا أبالغ إن قلت إن هذا السور العظيم بقلعته الشامخة لا مثيل له في أي مدينة يمنية سوى سور مدينة (ثلاء) وحصنها الذي يشبهه ولكن بصورة مصغرة جداً، وإنني لم أشاهد أو أعرف مثيلاً له في أي مدينة عربية أو أجنبية.

* * *

إذا كان (سور تعز) العظيم يعد أعظم أثر، فهنالك داخل المدينة التي

احتضنها هذا السور العظيم وقلعته الحارس الأمين مآثر عديدة غاية في العظمة يتوقف أمامها الناس بدهشة وإعجاب، أعني بها الجوامع والمدارس والأضرحة ذات القباب الصغيرة والأخرى العملاقة ذات البناء المتميز بدقة زخارفه التي لا مثيل لها والكتابات البديعة بألوان من الأصباغ اليمانية الشهيرة التي مازال بعضها قائماً منذ مئات السنين حتى عهد الإمام يحيي وبنيه الذين عمدوا إلى طمس تلك المعالم بحجة تبييضها (بالنورة) البيضاء كما فعل (الجار الكبير) عندما طمس معالم وزخارف وأعمدة الجامع الكبير (جامع الملكة أروى) في صنعاء وجامع (الجند) الذي يعد أول جامع أقامه (معاذ بن جبل) أقيمت فيه أول صلاة جمعة في شهر رجب وهي الجمعة التي مازال اليمنيون يعدونها عيداً من أعيادهم المهمة.

* * *

مدرسة (أو جامع) الأشرفية

نسبة إلى الملك أشرف. يطل الجامع على المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية بمئذنتيه اللتين لا مثيل لهما في أي مدينة بفن عمارتهما وزخارفهما الخارجية وقبابهما العديدة، وتحيط به من الجانبين (برندات) طويلة ذات عقود كبيرة مفتوحة على الهواء، وعند كل فتحة (دكّة) من (القضاض) يجلس عليها المصلون والدارسون يستنشقون الهواء الطلق المنعش ويطلون منها على المدينة وضواحيها والجبال البعيدة الخضراء، وفي الخلف أحواض لدباغة الجلود التي اشتهرت بجودتها. وبداخل هذا الجامع أو المدرسة (الأشرفية) أعمدة وعقود يرتكز عليها البناء وقبّتان كبيرتان مزركشتان بالخط الملون ومحارب غاية في الإبداع.

* * *

جامع (المظفّر)

نسبة إلى الملك (المظفّر). يعد جامع (المظفّر) أكبر جوامع المدينة. كانت له مئذنة شبيهة بمئذنتي مدرسة وجامع (الأشرفية) بل تكاد تكون أكثر طولاً (التقطت صورة للمدينة والمئذنة مازالت قائمة عام ١٩٦٠ وقبل انهيارها عندما خرجت مع الطلبة اليمنيين من (مصر) في أول إجازة لنا). كانت تقام في هذا الجامع الكبير جميع الصلوات وبالذات صلاة الجمعة، ذلك أنه الوحيد الذي كان يستوعب سكان المدينة لاتساعه، له بابان رئيسيان أحدهما من الغرب، وهو أشهرهما جمالاً ورونقاً بعقوده (المقوسة) التي تشبه جامع (الأزهر) وجامع (القيروان) وقصور الأندلس وجوامعها المشهورة، والباب الآخر خشبي منحوت عليه بخط بديع آيات منتقاة من القرآن الكريم. وكان يقع أمام الباب على بعد خمسة أمتار الحمام البخاري التركي الذائع الصيت.

يمتاز جامع (المظفر) برواقه الكبير المصلول بالحجارة بقضاض النورة المتين، وبركته الفسيحة التي كنا نسبح فيها معظم الأيام، وبالماء الرقراق الذي ينساب إليها بساقية (مقضضة) بالنورة من منحدرات جبل (صبر) الشامخ إلى سبل للشرب بقبابها المقضضة أيضاً، وتتوزع بميازيب إلى كل بركة صغيرة أو كبيرة يتوضأ فيها المصلون أو يغتسلون صباح كل يوم من (الجنابة). وأمام الجامع من الجهة (القبلية) الشمالية مقبرة أثرية تحتل مساحة واسعة ومسوّرة تضم رفات جميع ملوك وعظماء اليمن في تلك الحقب ويطل عليها الجامع بقبلته البارزة ذات القبة الصغيرة المنحوتة بالزخرفة البديعة، وبجوارها من الخارج على اليسار بوابة صغيرة ذات أعمدة عليها قبة صغيرة أيضاً ليدخل منها الملوك والسلاطين والحكّام وحاشيتهم

رأساً إلى الصفوف الأمامية أمام المنبر لكي لا يطأوا رقاب المصلين.

في كل صلاة جمعة كان الإمام «أحمد» يخرج من قصر (دار الناصر) على صهوة جواده (الرعد) مع حاشيته وحشمه وعكفته وسواريه وعساكره (النظام) و(البراني) بزاملهم المعتاد وأصوات أبواق (البورزان) وعبيده المحيطين به، ومظلته المزركشة بمعذباتها المزينة بلون الذهب تدور فوق رأسه، ويقوم بمهمة دورانها عبد عملاق. ومع أن المسافة قصيرة ما بين (دار الناصر) وجامع (المظفر) - إذ لا يفصل بينهما إلاّ (ميدان الشبكة) - إلاّ أن الإمام «أحمد» يريد بموكبه هذا أن يثبت لسكان المدينة أنه أجلّ مهابة وأعظم سطوة من ملوك بني رسول والغسانيين! لكن الناس والعامة منهم أيضاً يعرفون أنه كان يخرج من قصر (دار الناصر) الذي استولى عليه ويتجه ليصلي في جامع (المظفّر) في مدينة مسوّرة بسور عظيم لم يكن هو ولا والده قد عمرا مثلها في تاريخهما المظلم المديد!

كان جامع (المظفّر) منافساً لجامع (الأشرفية) بالزخارف والكتابات ذات الخط الجميل بألوانه الزاهية على المساحات الفضائية لقبابه الثلاث الكبيرة، والصغيرة أيضاً، من الداخل وعلى جوانب أعمدته التي تسند هذه القباب والسقف الكبير للجامع بأكمله. كنت عندما أحاول رفع رأسي إلى أعلى لقراءة الكتابة عليها أصاب بالدوار ويظل رأسي يدور وجسمي أيضاً حتى أكاد أسقط من الدوران.

المعتبية

تحيرت في الحديث عنها هل أسميها جامعاً أو مسجداً أو مدرسة!! فهي تحمل كل الصفات لهذه المسميات. تعد «المعتبية» ثالث أكبر جامع في «تعز» بعد جامع «المظفّر» الكبير وجامع «الأشرفية».

كانت هذه «المعتبية» أحد الأشياء التي كنت في ذلك الوقت أتساءل عنها.. لماذا لم تعلُها مئذنتان «كالأشرفية» أو مئذنة واحدة «كالمظفر».. ولماذا لها «قبتان» فقط شبيهتان بالنهدين.. ولماذا سميت بالمعتبية؟

ظلت هذه التساؤلات في ذاكرتي منذ كنت طالباً في المدرسة «الأحمدية» حتى التقيت أخيراً وبالمصادفة الأستاذ الأديب «الغريب» السفير «محمد أنعم». قال لي، والعهدة عليه، إن اسم جامع أو مدرسة أو مسجد «المعتبية» منسوب لزوجة أحد ملوك «تعز» وكانت جارية واسمها «المعتب» وهي التي أمرت ببنائه وسمي باسمها.

وعن سؤاله لماذا لا توجد بأعلاه مئذنة، ولماذا اكتفت ببناء قبتين فوقه فقط؟ كان جوابه: لأن التي بنته كانت جارية فمنع عليها زوجها الملك بناء مئذنة، وأما لماذا اكتفت بتتويجه بقبتين فقط على شكل نهدين؟ فلأنها كانت ذات حكمة ودهاء، حيث رمزت بأهم مناطق جسم المرأة جاذبية للملوك.

هذا ما قاله أستاذي الأديب الشاعر «محمد أنعم غالب». اعتبرت كلامه منطق خيال شاعر، لكنني قمت برحلة سريعة إلى ذاكرتي وأيقنت فعلاً بقول أستاذي الشاعر.

لا تختلف هذه «المعتبية» عن الأشرفية. فهي صورة لها من الداخل والخارج ما عدا المئذنتينِ وعدد القباب المتنوعة الأحجام. ولا تختلف المعتبية عن «المظفّر» الجامع الكبير إلاّ أنها أصغر منه حجماً وقباباً وأبواباً رئيسة واتساعاً. لكنني كنت عندما أزورها أشعر فيها براحة محببة إلى القلب، وعندما أُطل من أروقتها الجانبية أشاهد عن بعد جبل «التعكر» يحتضن قريتي وقرى أخرى. وتعتبر

«المعتبية» متميزة بحيِّها وحارتها ذات البيوت النظيفة القديمة منها أو المستحدثة والمشجرة أيضاً.

قبة الحسينية العملاقة

هذه القبة ـ الضريح العملاقة، الغاية في دقة فن عمارتها البديعة التي لا أتذكر أنني صادفت مثلها في أي مكان. أتذكر أن هنالك قبتين كبيرتين في مدينة «موزع» إحداهما قبة «المحولي» والأخرى، لا أتذكر اسمها، مبنية بالحجر «الحبش».

لكن قبة الحسينية بمدينة تعز متميزة، فهي واسعة وقائمة على ستة أركان أو أكثر، بينما القباب الأخرى قائمة على أربعة أركان فقط.

تقع قبة «الحسينية» في ساحة شبه ميدان كنت مع زملائي نلعب فيه ونستأجر عجلة «السيكل» ونظل ندور بها في الساحة، وربما نصعد خارج باب المدينة إلى «العرضي» بصعوبة لكي نتمتع بعد ذلك بالعودة نزولاً مسرعين وبدون جهد!

لم نكن نستطيع الاقتراب منها أو الدخول إليها لأن الإمام أحمد كان قد خصصها كمخزن كبير للمحروقات الخاصة به وللمحضار الذي حاول جاهداً إيجاد مشروع حضاري بتوفير مولد كهربائي وتوفير المحروقات للسيارات القليلة ولحاجة الناس الضرورية من الكاز لمسارجهم «القماقم» أو «الفوانيس». ولأن الإمام أحمد كان حاقداً على كل مآثر هذه المدينة فقد أمر بأن تكون هذه القبة العملاقة «الحسينية» مخزناً للمحروقات بدلاً من أن يأمر بترميمها، وكأنه لم يجد بديلاً عنها، أو يأمر ببناء مخزن غيرها.

المنظار السحري

حين وجودي عصر كل يوم في ميدان (العرضي)، كانت إحدى

متعي مشاهدة (الناظور) السحري الذي عاد به أحد المغامرين من عدن في غفوة من الإمام أحمد الذي كان قد أصبح في ذلك الوقت مخدراً!

كان هذا المغامر يصيح بصوت عال:

ـ انظر.. انظر.. يا سلام! (تعز) العز محل السلطنة.. (باريس بلاد الفرنسيس)، محل الذهب والفضة.. الخ.

أدفع نصف (بقشة) وأنظر في ذلك المنظار (السحري) الصغير بعد أن أضعه على عينيَّ والرجل يصيح ويضغط بأصابعه لتحريك المناظر الملونة. كم كنت مبهوراً تكاد الدهشة تغمرني وأنا أشاهد مدناً وشوارع وسيارات ونساء ورجالاً وأطفالاً يكادون يتحركون وينطقون خلقهم الله في أحسن تقويم وأبدع عزّ جلالة!

لم تكن هناك أي صورة لمدينة (تعز) في هذا المنظار السحري العجيب، فقد كانت الصور جميعها لمدن أوروبية، لكنني كنت أصدق بخيالي أن مدينة تعز موجودة في ذلك المنظار السحري العجيب!

بائعة البطاطا

كنت مع صديقي نخرج من المدرسة عصر بعض الأيام، ندخل من (الباب الكبير) للمدينة ونتجه عبر السائلة إلى ميدان (الشبكة) ونتقرفص أمام بائعة (البطاطا المقلية) الشابة الجميلة لنأكل من بطاطها مع قليل من البهارات الحارقة ورذاذ من مسحوق الزعتر.

كان هناك غيرها من البائعات الكثر، نساء وشابات بجانبها، لكنها كانت الوحيدة التي سلبت عقولنا. مليحة كانت وجميلة أيضاً. ذات أنوثة صارخة ووجنتين حمراوين بالطبيعة، وعينين واسعتين مكحلتين، وأنف بارز رفيع وشفتين ليستا منمنمتين بل ممتلئتين بلون

البنفسج، وثغر ينفرج عن أسنان متسقة رغم ما علق فيه وسطها من لون رمادي كغيرها من سكان المدينة نتيجة للماء المنحدر من جبل (صبر) بسواقيه المقضضة بالنورة للشرب وللوضوء في برك الجوامع والمساجد!

* * *

تأكد لي أنها تنفق دخلها على ملابسها وهندامها بالتأكيد! تلبس قميصاً مخصراً من الحرير المنقوش والمطرز بخيوط دقيقة بلون الذهب والفضة مفتوحاً من تحت الرقبة ويضيق وسط نحرها الذي تبرز منه هالة نهديها المنعمين.. وسروالاً يغطي ساقيها مزركشاً في نهاية فتحتيه، كان هذا القميص الحرير المزركش ذا «كمين» فضفاضين تعقده خلف رقبتها وتحته زنة من الحرير المزركش الشفاف تظهر من خلالها ذراعاها، وكانت يداها البضتان منقوشتين بالخضاب الأسود و«الحناء» وبأساور من الذهب.

على رأسها «مقرمة» من الحرير الأحمر الناعم المطرز، يبرز من تحتها شعرها المغدق على الجبين والخدين المتدلي من أحدهما «مشقر» الريحان.

عندما كنت مع زميلي نتأمل هذه المفاتن فيها بعد أن نكمل وجبتنا من بطاطها المقلي ونماطل بالانصراف كانت تصرخ في وجهنا «مكشرة» كلبوة مفترسة.. ونقوم فزعين مذعورين فارين من أمامها ونعود إلى مدرستنا والغيرة تفتك في بعضنا بعضاً. نتخاصم ساعتها ونحاول أن نفتح كتبنا للمذاكرة، لكن خيال صورة وجهها كان أمامنا في كل صفحة نفتحها، ويجفونا النوم.

قلعة القاهرة

تحتل قلعة القاهرة موقعاً مناسباً على قمة منحدرات جبل (صبر)

المشرفة على مدينة «تعز» من الجهة الشمالية. وكان لهذا الموقع المتميز أهمية بالغة، إذ مكن القلعة من أداء واجبها التحصيني والدفاعي عن المدينة.. وجعل منها الإمام «أحمد» منذ كان أميراً للواء تعز ووليا للعهد - وحتى أصبح إماماً - سجناً رهيباً «للرهائن»!

* * *

في بداية كل شهر كان والدي رحمه الله يرسل - من مقر عمله في (المنفى) - مصاريف شهرية لي ولابن عمي الأستاذ أحمد قاسم دماج «الرهينة»، أتسلمها من حامل البريد الذي يصل في بداية كل شهر إلى قبة (المعصور) التي تبعد عن باب (موسى) حوالى ٦٠ متراً - كانت قبة المعصور و(طولقتها) العملاقة وسبل مائها المقضضة القديمة تستقبل المسافرين المغادرين أو القادمين كنقطة تفتيش حدودية لعاصمة الإمام أحمد، «تعز» - أتسلم المصاريف من الريالات الفضية (ماري تريزا) الثقيلة جداً على جسمي النحيف. خمسة ريالات مصروف شهري لي وثلاثون ريالاً لابن عمي «الرهينة» في قلعة القاهرة.

* * *

كانت بداية معرفتي ومشاهدتي لهذه القلعة عندما صعدت إليها من المدينة في طريق مدرج بالحجارة إلى مزار (الشبزي) الذي يزوره اليمنيون رجالاً ونساء وأطفالاً. والمزار عبارة عن كهف صغير بابه مقضض بالنورة، وحوله كراسي من الحجارة المنحوتة ليجلس عليها الزائرون. في تلك المرحلة من الطفولة والصبا لم أكن أعرف شيئاً عن هذا (الشبزي) ولم يتسنَّ لي معرفة كونه أديباً وشاعراً وشخصية يهودية مشهورة إلاّ أخيراً!

* * *

ينتهي الطريق المدرج بالحجارة عند هذا المزار، وبعد ذلك كان عليَّ الصعود في طريق وعرة شقتها عبر الزمن أرجل الصاعدين والنازلين. كانت قد فتحت فجوة من السور مستحدثة للدخول والخروج تدعى (عين الدمة) منها يؤدي الطريق إلى البوابة الرئيسية للقلعة (بمرحل) معبد بالحجارة المصقولة يصعد منه الناس والإمدادات وعربات المدافع التي تجرها البغال. كان المرحل ملتوياً ويستدعي المرء للاستراحة في كل منعطف فيه.

أذكر أنني وصلت إلى البوابة المنيعة المرصع خشبها بصفائح من الحديد والنحاس التي يعجز العدو عن إشعال النار فيها. كان باباً كبيراً يسمح بدخول القوافل التي تحمل المؤن أو التي تجر المدافع وعربات الذخيرة. أما الناس من رجال ونساء، الذين كانوا يزورون أبناءهم (الرهائن) لتقديم بعض العون لهم أو لإعطائهم بعض (الكعك) أو الزاد ومدهم ببعض الحاجات الضرورية فإنهم يتمكنون من الدخول من باب صغير مقوس من أعلاه يفتح في إحدى دفتي الباب الكبير، وفي وسطه نافذة صغيرة جداً تفتح للتأكد من هوية الطارق وممن يريد زيارته.

فتحت هذه النافذة الصغيرة المحصنة بأسياخ من الحديد غليظة بالرغم من أنها لا تسمح بدخول رأس كلب أو قط فما بالك برأس إنسان؟

ـ من تريد؟

ـ أريد أن أقابل ابن عمي الرهينة.

وأطبق النافذة الصغيرة في وجهي بعد أن بصق من فمه (الشمة) فاتسخ ثوبي فوق ما هو متسخ.

بعد فترة انتظار طويلة فتح الباب الصغير المقوس من أعلاه محدثاً صوتاً مزعجاً.

كنت أول الداخلين، وخلفي مجموعة من الرجال الزائرين لأبنائهم يكادون يدفعونني إلى الأرض. لكن الحارس «الجلف» استطاع برجله الغليظة أن ينظم دخولنا بانضباط دقيق، وبدا الباب وكأنه «دبر» جمل يقص «بعرة» بدقة!

فتشني بدقة وبسرعة، وأخذ من مصروف ابن عمي (ريالين) وعندما حاولت التلكؤ والاحتجاج لكزني الذي كان ورائي وهمس في أذني بأن لا أعترض وأن أمشي سريعاً.

وجدت نفسي بعد خمسة أمتار أمام باب آخر وتلاحق بعدي الآخرون، وفتحت نافذة صغيرة كسابقتها. وبعد فترة طويلة فتح الباب الصغير المقوس من أعلاه وتلقفنا حارس آخر غليظ الجسم والطباع أيضاً وأخذ مني (ريالين) ولم أعترض، وهرول من ورائي الآخرون فرحين لكننا صدمنا ببوابة ثالثة. فتحت النافذة الصغيرة، ثم انتظرنا فترة طويلة إلى أن فتح الباب الصغير المقوس من أعلاه وتلقفنا حارس غليظ ثالث وأخذ مني (ريالين) ولم أعترض. وأسرعت ومن ورائي الآخرون. كنت متألماً وخائفاً أن يظن ابن عمي «الرهينة» أنني أخذتها لي، لكنني حمدت الله على أنني دخلت من البوابة الرهيبة لكي أرى ابن عمي الرهينة فرحاً معانقاً لي!

* * *

كان الرهائن واقفين على بعد، كلٌّ يتطلع ليرى أقاربه. وكان قد لفت نظري رجل مهيب بثياب بيضاء نظيفة يقف في وسطهم. أمرنا حرس القلعة بأن نتوقف في صفوف حتى يخرج الشيخ

«المحجاني» قائد القلعة ليأذن لنا بالالتقاء بالرهائن. كنت أصغر الزوار. وعندما خرج الشيخ «المحجاني» مرَّ علينا وسأل كل شخص عمن يريد زيارته من الرهائن وما هي الصلة أو القرابة التي تجمعه بالرهينة؟

عندما رآني توقف ونظر إليَّ ملياً وهو يتلفت إلى الحراس، ثم صاح مستفسراً:

ـ أهذا الصبي زائر أم رهينة؟

وتلقى الرد بأنه زائر لابن عمه الرهينة دماج. أصبت برعب وهلع وارتجفت وجلا كعصفور أو كأرنب خائف.

* * *

عندما سمح لنا الشيخ «المحجاني» بالالتقاء بالرهائن انزعجت لصوت جلجلة القيود الحديدية على أرجلهم. لم أعد أتذكر أي ملمح لصورة ابن عمي ولا هو، لكن صلة الدم كانت رائحتها تقودني وتقوده لنعرف بعضنا بعضاً.

هرولت إليه وحاول أن يهرول إليَّ رغم قيده الغليظ. وعندما اقتربنا من بعضنا تعانقنا، وتمسكت به وأنا أتشنج باكياً حتى علا صوتي. حاول أن يعدني عن الالتصاق به رويداً رويداً وبدأ يهمس في أذني بكلمات مطمئنة ومشجّعة، وبأن الأمور عادية وأخذ بيدي مع زملائه لكي يريني معالم القلعة جاهداً أن يخلق جواً مرحاً باسماً يزيل عني الكآبة والبكاء.

* * *

أقبل نحونا ذلك الرجل المهاب بثيابه البيضاء النظيفة و«بعمته» البيضاء فوق رأسه كلباس علماء الأزهر، وربت كتفينا بحنان وقال لابن عمي متسائلاً:

ـ أهذا ابن عمك «أول الثائرين»، ابن «نقيب الأدباء وأديب النقباء»؟! بارك الله فيكم.

تركنا وسألت ابن عمي عنه فقال:

ـ إنه السجين الوحيد بين الرهائن وهو أستاذ فاضل. «قاسم غالب» يخصص كل وقته لتعليمنا اللغة والتاريخ والجغرافيا والمنطق والأخلاق والحساب. إنه أكثر علماً من معلمي المدرسة الأحمدية.

قال لي ذلك بافتخار، ثم عرّفني بزملائه:

ـ هذا ابن عمي «العنبري» من خبت (ذباب) وهذا «أمين نعمان البعداني» وهذا «ابن ناصر» من (ماوية) وهذا ابن «الهيَاجم» من (شرعب) وذلك ابن «محمد عبد اللّه جابر» من (البوكرة ـ الوازعية) وهذا «سلطان أحمد بجاش» من (المحاولة).. الخ.

وظل يطوف بي كل معالم القلعة ومدافعها، وسورها المحيط بها من كل جانب، وأشرفت معه من كل شاهق لنشاهد المدينة بل اليمن كله الذي كنت أعتقده.. وأشار إلى جبل التعكر حيث ترقد قريتنا الخامدة في حضنه. عجبت لمناعة هذه القلعة وكيف استطاع العمارون والأساطية أن يبنوا سورها على تلك الشواهق دون أن يصابوا بالدوار والخوف أو السقوط إلى الهاوية.

* * *

لا أعتقد بأن أية قلعة أو حصن في العالم قبل التاريخ أو في القرون الوسطى منيع مثلها. جميعها تخترق وجميعها يستطيع شخص ما الفرار منها.

فيما بعد عندما توافرت لي الدراسة والزيارات الكثيرة إلى الخارج أمكن لي مشاهدة قلاع وحصون في معظم البلدان العربية

والأوروبية شرقاً وغرباً. وكنت في بداية قراءاتي لروايات تاريخ الإسلام للمرحوم الأديب العربي الكبير «جرجي زيدان» ـ كرواية «المملوك الشارد» ـ أتخيل ما وصفه الكاتب عن ذلك المملوك الشارد الذي استطاع أن ينجو من المذبحة ويقفز بحصانه من سور قلعة صلاح الدين (محمد علي باشا) وأن يفر إلى صعيد مصر. وأتذكر ونحن ندرس في المرحلة الثانوية في (بني سويف) حيث كانت رواية (سجين زندا) إحدى مقررات اللغة الإنكليزية، كيف استطاع بطل الرواية القفز من إحدى نوافذ القلعة الحصينة إلى الخندق المائي المحيط بالقلعة وأن ينجو بنفسه. لا أعتقد أن شخصاً ما يستطيع القفز بحصانه من (قلعة القاهرة) كما فعل ذلك المملوك الشارد، فسوف يموت هو وحصانه قبل أن يصلا الأرض. ولا أعتقد أن أي شخص سيغامر بالقفز من إحدى نوافذها كما في (سجين زندا) لأنه سيصل قطعاً صغيرة مبعثرة في كل مكان.

ميدان الشبكة

كان ميدان الشبكة هو الساحة والمتنفس الوحيد لمدينة تعز. التي يجثم عليها الوباء كضباب ذي لون رمادي مائل للاصفرار يظل منذ الصباح الباكر راكداً فوقها إلى منتصف النهار.

يقع ميدان الشبكة في وسط المدينة.. تحفه من الجانب الشرقي شجرة (الطولقة) العملاقة المعمرة التي لا يعرف أحد كم عمرها من السنين حيث تضاربت الأقوال عن عمرها وفي أي عصر أو عهد غرست. قيل منذ الحضارة الحميرية وبعضهم قال بأنها منذ العصر الصليحي أو المملوكي والأيوبي، أو عصر بني رسول الغسانيين، أو العصر العثماني.. الخ. لكن المرجح أنها غرست في عهد الملكة العظيمة «أروى بنت أحمد» التي كانت تهتم بغرس هذا النوع

العملاق من أشجار (الطولق) في كل أنحاء مدن اليمن وطرقه التي عبّدتها بالحجارة المصلولة وبنت في كل (مرحل) (سماسر) ضخمة تأوي القوافل بما تحمله، وأمام كل سمسرة وبجانب كل سبيل للماء طولقة عملاقة تستريح فيها القوافل والمسافرون تحت ظلالها الوافرة لتقيهم حرارة الشمس أو هطول الأمطار.

كان يحيط بهذا الميدان من كل الجوانب (ديور) وشبه قصور بساتينها الصغيرة، وأضرحة بقبابها المنورة بالقضاض الذي يعد حتى اليوم أكثر متانة من الأسمنت.

سمي بميدان الشبكة نسبة لسجن رهيب يقع في شرقه وتفصله عنه (السائلة) الوحيدة التي تشق وسط المدينة والتي تمتلىء بالسيول المنحدرة من جبل صبر ومن بعض عوارض صخرة قلعة القاهرة. كان سجن الشبكة الرهيب يحتل مساحة كنصف مساحة الميدان وربما أكثر، يحيط به سور حجري مرتفع وعلى أركانه الأربعة (نوب) مدورة مرتفعة للحراسة. كانت بوابته الوحيدة تطل على السائلة والميدان ولم نكن نجرؤ على الاقتراب منها. كان يدفعني الحنين والشوق في بعض الأحيان لاقتحام البوابة والدخول إلى السجن الذي كان والدي ـ رحمه الله ـ قد اعتقل فيه مع بعض الأحرار عام ١٩٤٣م واستطاع بعد ذلك الفرار مع زميله المرحوم الأستاذ «عقيل عثمان» عن طريق «الحجرية» إلى عدن مشياً على الأقدام في نيسان/ أبريل ١٩٤٤ ليؤسس مع زملائه الذين لحقوا به (حزب الأحرار).

* * *

لا أحد يعرف متى بني هذا السجن (المركزي) الرهيب ومن الذي أطلق عليه هذا الاسم؟ من المؤكد أنه قديم منذ العصور السابقة أو

اللاحقة لبني رسول أو الأيوبيين أو الأتراك، وربما كان ثكنات للجيش يخرج منه الجند ليستعرضها الملك أو السلطان في الميدان أمام المنصة المقضضة بالنورة القابعة تحت ظل تلك الطولقة العملاقة ليدافعوا عن الميدان أو يخرجوا غزاة إلى المناطق والثغور لاستعادتها من العدو.

لم يجزم البعض، بل قال بأن التسمية لهذا السجن والميدان كانت منذ عهد الإمام (يحيى) وبنيه ومن سبقهم من الأئمة الكثر. ويستدلون على ذلك بأسماء السجون الرهيبة التي أطلقها الإمام يحيى وبنوه التي كانت مشابهة، مثل سجن (الزاجر) بمدينة إب و(الرادع) في مدينة صنعاء و(النافع) في مدينة حجه و(المهلهل) في مدينة خمر و(السناره) في مدينة صعده.. الخ وبأن ميدان «الشبكة» كان اسمه ميدان (الطولقة)، وسجن الشبكة كان اسمه غير ذلك.

كانت هذه معلوماتنا من أستاذ اللغة العربية والتاريخ العجوز الذي كنت مع صديقي وآخرين نذهب إلى غرفته المتواضعة في المدرسة الأحمدية ونترجاه بإلحاح ونحن جاثمون نحيط به من كل جانب أن يفتينا عن هذا الميدان والسجن.. ويستجيب والبسمة تعلو شفتيه.

* * *

نحتشد مع بعض الناس على جوانب المدينة في كل جمعة وننتظر للتفرج على موكب الإمام «أحمد» القادم من (دار الناصر) متجهاً إلى (جامع المظفر) لأداء صلاة الجمعة. وتبدأ أصوات نفير البورزان من كل جانب ويطل موكب الإمام أحمد بعساكر النظام وهم (يزملون) وينشدون ببنادقهم (البشلي) وعلى جانبي الموكب

(السواري) الفرسان على خيولهم ببنادقهم (أبو بيسة) القصيرة.. ثم (العكفة) الحرس الخاص للإمام بملابسهم الشعبية الزرقاء وبنادقهم الجيدة (الزاكي كرام) يحيطون بالإمام أحمد وهو على فرسه «الرعد» والعبيد والعمالقة من أمامه ومن ورائه على الجانبين واحدٌ يظلل الإمام بمظلته والإمام أحمد على حصانه «الرعد» كغول رهيب يهز رأسه إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى و«عذبة» عمامته، تهتز مع كل حركة وشفتاه تتحركان كأنه يرد التحية ـ قال مواطن كان بجوارنا إن الإمام يحرك شفتيه ليس للتحية وإنما باللعن: «لعنكم الله».. «قبّح الله وجوهكم»؟

نظرنا إليه بسذاجة.. فابتسم الرجل وربت كتفينا.

الدكتور الجيلاني

في عام ١٩٥٠، وعمري في ذلك الوقت لا يتجاوز السابعة، أخذني والدي معه من مقر عمله (المنفى) إلى مدينة تعز بعد أن كنت وحيده الذي ظل على قيد الحياة إثر وفاة جميع أولاده الكبار على خالات أخريات، والصغار على والدتي رحمها الله.

كانت تلك هي أول مرة أعرف هذه المدينة.. وأسكن معه في منزل صديقه الدكتور «الجيلاني» كعادته دائماً بالقرب من جامع «المظفر».

كانت أول صورة فوتوغرافية التقطت لي مع والدي وصحبه، وكذلك بمفردي، في فناء منزل الدكتور «الجيلاني»، التقطها أول مصور في ذلك الزمان الأستاذ «جغمان» قبل أن يفتح الوالد المرحوم «أحمد عمر عبسي» أول استديو تصوير خارج «باب الكبير» بعد سنوات.

كان الدكتور «الجيلاني» أشهر طبيب عرفته تعز رغم وجود دكتور إيطالي يدعى «كفلون» أو كما يطلق عليه اليمنيون (طفلون) وكان يرافقه للترجمة «المنتصر» من «ليبيا» الشقيقة الذي أصبح فيما بعد بعدة سنوات رئيساً لوزرائها.

لكن الدكتور «الجيلاني» كان الأشهر، وهو كما قيل من أصل يمني اغترب والده إلى بلاد الهند والسند.

* * *

عاد الدكتور «الجيلاني» إلى اليمن مع زوجته التي هي أيضاً من أصل يمني، ومعهما ابنتهما الوحيدة «حفيظة». كانت لوالدي غرفة خاصة في منزل الدكتور «الجيلاني» في الدور الأسفل، وكنت أسكن معه أيضاً قبل أن أصبح تلميذاً في المدرسة «الأحمدية» بعد عدة سنوات.

وكان الدكتور «الجيلاني» قد خصص له بغلاً ينتقل على ظهره إلى المستشفى العسكري «العثماني» الأصل مع حارس يرافقه دائماً، بكوفيته الصوفية على رأسه وبدلته «الإفرنجية» المهابة، وهو على صهوة بغله وأمامه الحارس العسكري «النظامي» ببندقيته وحزامه (الطيار) الخاص بالرصاص يمشي أمامه ذهاباً وإياباً من المنزل إلى المستشفى.

كانت زوجته أم «حفيظة» امرأة فاضلة حنونة، لكنها ممتلئة الجسم ثخينة جداً بالمقارنة بنساء مدينة تعز، تعد الغداء وتأتي به إلى غرفة والدي ونتناوله جميعاً. وكانت «حفيظة» تتعلق بظهر والدها ويداها على عنقه هاربة من أن تأكل أي شيء يقدمه والدها إليها، فكان يقول لوالدي:

ـ هذه البنت «حفيزة» لا تأكل. كم هي نحيفة يا أستاذ!

وكان والدي يجامله بأنني أيضاً أنحف منها!

* * *

كان والدي قد أهدى للمرحوم المناضل العلامة «عبد الرحمن الحداد» بغلة حبشية ومسدساً ألمانياً فريداً.. وأهدى القاضي «عبد الرحمن الحداد» لوالدي خاتماً من الذهب تتوسطه «ياقوتة» نادرة وأهداني أيضاً سيكلا صغيراً «دراجة» بثلاث عجلات كنت ألعب بها في ساحة منزل الدكتور الجيلاني المطلة على السائلة، وكانت الأخت «حفيظة» هي الوحيدة التي أسمح لها بالركوب عليها. هذا السيكل «الدراجة» كان بداية صداقة وثيقة فيما بيني وبين «حفيظة» التي كانت ربما تصغرني بسنة أو أكثر. وكطفلين صغيرين تصادقا، حذرتني في يوم من الأيام أن لا ألمس بيدي مفاتيح الكهرباء وخيوطها التي تمَّ تركيبها أخيراً من محطة «المحظار» والتي بهرتني فعلاً بضوئها.

ثم تطورت العلاقة بيني وبينها إلى أن أخذتني بيدي وقادتني إلى الدور الأعلى وفتحت غرفة خاصة بها، وعندما سحبتني إلى مدخل الغرفة بقوة لترددي. صعقت بانبهار شديد لما شاهدته من لعب آلية من عربات صغيرة وطائرات ودبابات وقرود وأشكال كلها تتحرك معلقة بعضها على الجدران وأخرى على أرففها. هذه سيارة تمشي وهذا قرد بهلوان يمارس حركاته متشقلباً وهذا قطار يسير على قضبان ويصفر، وهذه عصفورة تلتقط حبات القمح.

جلست على «عجزي» مذهولاً، ثم سحبتني لأستقيم وأعود إلى وضعي الطبيعي لكي أنزل معها ساحة المنزل.. نركب السيكل ذا العجلات الثلاث الذي كنت قد مقتّه ونبذته بعد أن انبهرت بما شاهدت من ألعاب غاية في السحر في غرفتها الخاصة.

كانت الأخت «حفيظة» هي كل ما يمتلكه والدها من كنز ثمين، يحبها حباً لا نظير له، إذا غادر المنزل يصيح «أين حفيزة..؟» وإذا عاد يصيح «أين حفيزة»؟

أما والدتها الفاضلة فقد كانت أشد حناناً ومحبّة لابنتها الوحيدة «حفيظة» لكنها كانت تكتم هذا الشعور في داخلها لأن زوجها يبوح به بأعلى صوته دائماً أمام أصدقائه ومرضاه.

* * *

صندوق الطرب

من البيوت التي كان يستضاف فيها والدي «رحمه اللّه» أثناء وجوده في مدينة تعز منزل «الحر بشير». كان صديقاً لوالدي منذ عدة سنوات كما كان ابن عمه «مبروك الحر» أيضاً. في تلك الفترة كنت صغير السن ولم أدخل المدرسة بعد. وكعادته، كان والدي يأخذني معه في كل أسفاره إلى «تعز». مازلت أتذكر الطريق إلى منزل الوالد بشير حيث نمرّ من ميدان الشبكة والطولقة المطلة عليها دور عامل تعز ـ رحمه اللّه ـ ونتجه صاعدين من جوار شجرة عملاقة معمرة من أشجار (الحمر) التي يطلق عليها في الخارج (التمر الهندي) وبجوارها أيضاً شجرة عملاقة أيضاً من أشجار (القرناط) التي يبدو أن لا نظير لها في الخارج بثمارها ذات الأحجام الكبيرة بلونها الأحمر الداكن، تتساقط على شكل قرون الفاصوليا أو قرون (الكشت). كنا نقطمها لمذاقها الحلو جداً وكانت تباع أيضاً في الأسواق. كان منزل الوالد بشير من المنازل المثالية الأنيقة. بابه من الخشب المزركش القديم ويتكون من طابقين، الأسفل يضم عدة أماكن صغيرة أكثرها مخازن، أما الطابق الثاني فكان يضم منزلتين وعدة أماكن وحمامات في منحنيات السلالم

ومطبخاً على سطحه. كانت إحدى المناظر يقيم فيها والدي، وعندما دخلتها شدّ انتباهي صندوق من خشب الأبانوس في أسفلها. كان الوالد بشير قد وفر عدة أسطوانات تلقاها من عدن بواسطة أصدقائه، وكنت لأول مرة أرى صندوقاً يفتح وتركب فيه أسطوانة سوداء وتوضع بدقة قطعة معدنية بيضاء ذات شوكة صغيرة مدببة على الأسطوانة بعد أن يقوم الوالد بشير بتحريك قطعة بيده على يسار الصندوق ويقفل النوافذ والأبواب.

كنت بجوار الصندوق .. فزعت عندما سمعت صوتاً يقول:

ـ «جعفر فون» يقدم لكم الفنان «العنتري» في هذه الأغنية.

ذهلت وأنا أسمع «العنتري» بعوده وصوته يغني، والتجأت إلى حضن والدي هامداً وهو يربت ظهري بحنان مبتسماً.. ثم يتكرر صوت «جعفر فون» في كل أسطوانة ليقدم الفنانين «الماس» «القعطي».

كان والدي ـ رحمه الله ـ إضافة لكونه سياسياً ومثقفاً وأديباً وطنياً فناناً ذا صوت جميل عندما يغني ويشدو بأغاني التراث وبالذات أغنية «وامغرد بوادي الدور». أتذكر فناناً صديقاً لوالدي (لا أتذكر اسمه) كان يزور والدي دائماً في منفاه «موزع» وكان يظل معه أكثر من شهر أو لعدة أشهر. أذكر أن والدي ذات مرة دعاه واستضافه لعدة أسابيع في قريتنا «بالنقيلين» التي يحتضنها جبل التعكر. كان هذا الفنان يعزف على العود ووالدي يغني بصوته الجميل الذي كان يطرب جميع أصدقائه من الأحرار الأدباء والمثقفين الذين لقّبوه (نقيب الأدباء وأديب النقباء) لذلك كان الوالد «بشير» يوفر له الأسطوانات التراثية التي يحبها والدي وينتشي لسماعها.

صيدلية حسن بن حسن آغا

تُعَدُّ أول صيدلية فتحت في مدينة تعز بل وفي كل أنحاء اليمن الذي احتله الإمام يحيى وابنه سيف الإسلام أحمد ولي العهد وأمير لواء تعز الذي أصبح بعد ذلك إماماً وملكاً على اليمن. كانت هذه الصيدلية تقع في السوق الكبير الممتد على عرض المدينة من الباب الكبير شرقاً إلى (باب موسى) غرباً وكانت الصيدلية أقرب بكثير لباب موسى. كان الوالد (حسن بن حسن) صديقاً حميماً لوالدي مثلما كان نجله فاروق صديقاً لي أيضاً.

استطاع حسن بن حسن جاهداً في ذلك الزمن العفن المغلق أن يفتح صيدلية في غفوة من الإمام يحيى وولي عهده أمير لواء تعز سيف الإسلام «أحمد»، وكان قد اقتدى به بعد ذلك بسنوات (المحضار) وصاحب مقهى المخاء وآخرون. كان حسن بن حسن يعد من القلائل النوادر جداً بوسامته ونظافة ملبسه (وشياكته) وكان والدي ـ رحمه الله ـ يتمنى أن يقتدي به الآخرون.

* * *

عندما كان والدي يصل من مقر عمله (المنفى) بعد شهور من المراجعة لكي يأذن له الإمام بالوصول إلى تعز كان يأخذني معه من المدرسة الأحمدية وأظل معه باستمرار في أماكن ضيافته عند أصدقائه الكثر في منزل الدكتور (الجيلاني) أو (المجاهد) و(الحربشي). كان أحب وقت له قبل الظهيرة حين يجلس على كرسي خشبي عند صديقه الحميم حسن بن حسن داخل صيدليته الوحيدة في اليمن وأجلس معه أيضاً، يأخذ بعض أدوية للملاريا و(الكلى) لأن منطقة عمله المنفى كانت مليئة بكل أمراض العالم. كان والدي ـ رحمه الله ـ أنيقاً أيضاً في ملبسه (وشياكته) قبل

هروبه مع صديقه المناضل القاضي (عقيل عثمان عقيل) مشياً على الأقدام إلى عدن في ١٤ نيسان/ أبريل عام ١٩٤٤م وحتى بعد عودته عام ١٩٤٧م بعد عودة جميع الأحرار اليمنيين. كنت أنظر إلى صديق والدي المشهور بوسامته وحسن مظهره ونظافة ملبسه وأنظر إلى والدي المشهور بهذه الميزة أيضاً. كان الوالد حسن بن حسن يلبس زنة (جلباباً) شبه بيضاء من الحرير الأصلي ومن فوقها (يلق) و(كوت) من الصوف الكشمير وعلى رأسه كوفية بيضاء مطرزة ومحاكة باليد ويلبس حذاء (مزايط) عدنياً وشرابات (جوارب) بيضاء مطرزة.

أما والدي ـ رحمه اللّه ـ فقد كان متميزاً بملبسه الأنيق، زنة بيضاء (جلباب) و(يلق) أبيض و(دجلة) بيضاء (بالطو) وعلى رأسه قبع أبيض (مشدة) وعلى خصره جنبية محرفة بالذهب الحميري ذات رأس (صيفاني) أصيل كان غمدها (جلبة) مذهبة منحوتة بالآيات القرآنية ذات الزخرف البديع من صنع (بيت الأكوع) أشهر أسرة توارثت صناعة هذه الجلب وحزامها المزركش المصنوع باليد والذهب، وكانت مثل هذه الأحزمة وأشهرها من صنع من يقيمون في سجون الإمام يحيى وبنيه. سألني الوالد حسن بن حسن وهو يربت كتفي مبتسماً عن أجمل لباس أعجبني لباسه أم لباس والدي؟ ابتسمت متردداً لكنني أجبت بأنه لباس والدي.. ضحك الوالد حسن بن حسن وأخذني بين ذراعيه وقال والدي بأنني متعصب له... كانت صداقة والدي بحسن بن حسن صداقة حميمة، فأثناء وجوده في تعز كان والدي يصلي الجمعة معه دائماً في جامعة «المظفر» وكانا يتجهان بعد ذلك للغداء في منزل الوالد حسن بن حسن ويقضيان المقيل هنالك دائماً وكنت أتعجب وأنا في تلك السن الصغيرة لماذا لا يأخذني والدي معه كعادته مع

أصدقاء آخرين له؟ واكتشفت فيما بعد عندما فتشت رسائل والدي القديمة المتبادلة مع حسن بن حسن بأن الأوضاع التي تعيشها اليمن كانت محور حديثهما كل جمعة على مائدة الغداء أو مكان المقيل.

أشهر مقيل في

يعد دار عامل تعز المرحوم محمد الباشا أشهر مقيل أدبي وسياسي وثقافي أيضاً. وكان والدي مع صديقه الدائم الشيخ يحيى منصور بن نصر الحاج، والقاضي العلامة عبد الرحمن الحداد، والمناضل العلامة عقيل عثمان عقيل وغيرهم يتوجهون دائماً للمقيل في دار محمد الباشا. وكان فعلاً ملتقى أدبياً وسياسياً يجتمع فيه بعض ممن استطاعوا الإفلات من سيف الإمام أحمد وجبروته الذي جزر بسيافيه رؤوس شهداء من أبرز رجالات اليمن علماء وأدباء ورجال قبائل بعد فشل ثورة ١٩٤٨ وكان نجل عامل تعز أحمد محمد الباشا أحد الأوائل الذين فروا إلى عدن وكوّنوا حزب الأحرار عام ١٩٤٤م.

كانت أسرة بيت الباشا من أعرق الأسر في تعز وأكثرها جاهاً ومالاً ولها شعبية على مستوى المدينة ونواحيها.

عندما عيّن ولي العهد السيف أحمد أميراً للواء تعز ضاق بمدينة تعز ومآثرها وهجرها إلى قصوره في (العرضي). ورغم أن عامل تعز المرحوم محمد الباشا حاول توثيق الصلة به ليأمن شره خصوصاً بعد فرار ولده الأستاذ أحمد محمد الباشا مع الأحرار إلى عدن إلاّ أن ولي العهد السيف أحمد كان يعد عامل تعز وأسرته أعداء ومنافسين له... وكانت الغيرة من توافد الناس العامة وبالذات الشخصيات الاجتماعية البارزة إلى دور العامل أكثر من توافدهم

إلى مقامه الشريف في العرضي. وزاد الحقد عليهم إثر فشل ثورة ١٩٤٨ وعودته من حجة بعد أن أباح مدينة صنعاء وجميع المدن والقرى اليمنية للنهب والسلب وأصبح إماماً وملكاً على اليمن ونقل عاصمة مملكته من صنعاء إلى تعز حيث استقر في قصره الجديد في قرية (صالة).. لكن الأحرار والأدباء والسياسيين المثقفين ممن نجوا من سيفه وسطوته مازالوا يتواردون ولو خفية إلى دار عامل تعز محمد الباشا تجذبهم الكتب والمجلات المصرية التي كان العامل مشتركاً بها أو التي كانت تصله بوساطة العلامة حيدرة من عدن. حاول الإمام أحمد جاهداً جذب الأدباء والشعراء إلى قصره في «صالة» مغدقاً عليهم الموائد العامرة والمساجلات الشعرية لكي يمنعهم من التوجه إلى بيت العامل لكنهم ظلوا على صلة حميمة بدار عامل تعز، وعندما صرخ الإمام أحمد في وجوههم بأنه سيجز رؤوس العصريين بسيفه غادروا مرة أخرى فراراً إلى عدن.

موتر الرصابي

أحد معالم مدينة تعز، وكان يُعدُّ في زمانه أعجوبة. كان صاحبه وسائقه الأوحد من أشهر (الدراولة) السائقين الذين كان لهم شهرة أعظم من نجوم السينما في هذا الوقت. وكان الرجال والنساء والشبان والشابات مغرمين بمشاهدتهم وسماع حكاياتهم ومغامراتهم في مدينة عدن وبطولاتهم في رحلاتهم التي يتعرضون فيها للأخطار في طرق غير معبدة ولا ممهدة نحت السائقون معالمها بناقلاتهم الهزيلة على مرّ الزمن!

كانوا بعدد أصابع اليدين، والشاحنات كانت أقل من ذلك. ورحلاتهم إلى مدينة عدن أو المخا أو الحديدة أو إلى مدينة صنعاء نادرة جداً وبالذات إلى صنعاء. «الموتر» يظل أسبوعاً كاملاً يتجول

في شوارع تعز و(الجراش بول) الصبي المساعد للسائق يصيح من فوقه:

ـ عدن .. عدن .. لكي يكتمل فيه المسافرون إلى عدن.

كان هؤلاء (الدراولة) السائقون جميلي المظهر بلباسهم الأنيق المتميز وعلى رؤوسهم عمائم من (الصمائط) الحريرية المزركشة. وكانوا أصحاء حمر الوجوه لحسن التغذية وتناولهم المشروبات الغازية والكحولية أيضاً وأكلهم خبز الروتي مع الشاي اللبن!

كان (الدريول) أو السائق الرصابي يعد شيخ «الدراولة» السائقين، لكنه أصبح هادماً وأصبح «موتره» الشاحنة المشهورة هادماً مثله، إلا أنه استطاع بجهد جهيد أن يحولها إلى حافلة (شبه باص) بعد أن أضاف إلى مؤخرتها كرسيين من الخشب على طولها من كلا الجانبين وسقفها بألواح من الخشب أيضاً وطلاها من الخارج بألوان عديدة ورسوم مختلفة من (الرنج) الورنيش. وهكذا سعدت مدينة تعز بوسيلة مواصلات تنقل بعض سكانها إلى (العرضي) ـ مقر قصور الإمام أحمد وإدارته ـ عبر العقبة التي عبدتها الملكة «أروى» بالحجارة المصلولة منذ عدة قرون لقوافل الجمال!

* * *

كنت مع صديقي نخرج من المدرسة الأحمدية عادة في بعض الأيام ونصعد العقبة إلى منطقة (حوض الأشراف) لكي يدرسنا الأستاذ المصري العظيم «عبد الغني مبروك» مجاناً في مقر إقامته في المبنى الحكومي الوحيد الذي بناه الأتراك.. كنا نصل إليه بعناء شديد وبأنفاسنا اللاهثة ـ نتيجة الملاريا والبلهارسيا ـ التي نلنا منها نصيباً وافراً!

كان موتر الرصابي منقذاً لنا للصعود إلى (جوض الأشراف) لكن

الأجرة كانت «بقشة» للراكب، وهذا ما دفعنا إلى أن نبيع مقررنا من (الخبز الخاص) ونكتفي بأكل (الكدم) الخبز العادي حتى لو جعنا، ونركب موتر الرصابي ذهاباً فقط... الرصابي يقف أمام الباب الذي بجانب مقعد القيادة ومساعد (الجراش بول) يتسلم «البقش» من الركاب. من الصعب على الرصابي إصلاح ما أفسده الدهر. فلم تكن تخلو أي رحلة من العطل والتوقف المتقطع ونضطر إلى الاستعانة عليها «بالدهفة». أما إذا توقف في العقبة فلا مناص لنا من إكمال الرحلة مشياً على الأقدام!

* * *

في غفوة من الإمام أحمد استطاع أحد المغامرين فتح مقهى خارج (الباب الكبير) على نمط مقاهي عدن وأسماه «قهوة المخا» كان يقدم فيه بعض المشروبات الغازية وأشهرها «الكوثر» و«الكاكولا» التي يستوردها من عدن والشاي «اللبن» و.. ثلاجة تعمل بلمبة من الكاز للماء البارد وحبات الثلج لمخزني القات! كان هذا المقهى ملتقى «الدراولة» سائقي الشاحنات وبعض من وجهاء المدينة وأكثرهم من المثقفين الناقمين على الوضع.

كنت وصديقي نهرب من المدرسة الأحمدية لكي نعرف هذا المقهى الجديد الذي ذاع صيته.. نقف أمام شرفته الخارجية نتفرج على «النجوم» وهم جالسون على كراسي خشبية وأمامهم على المناضد قوارير العصائر وكيسان «الشاهي باللبن» ويدخنون السجائر بأحاديثهم الصاخبة ونقاشهم المستفيض كأنهم في إحدى حانات أوروبا، والسائق الرصابي مهموم في وسطهم يواسونه بتقديم الحلول والأمل بإصلاح حافلته.

كان بودي أنا وصاحبي أن نتذوق ولو لمرة واحدة في حياتنا شراب

الكاكولا الذي ذاع صيته بأنه شراب «مسكر»، أو على الأقل نحتسي الشاي اللبن إذا أمكن. وكانت معجزة أن هذه الثلاجة تفرز (البرد) الذي كنا نتسابق على التقاطه عند هطول الأمطار في قرانا.

لا أدري كيف استطعنا ـ أنا وصديقي ـ إقناع ذوينا بمضاعفة «الجعالة» اليومية من «بقشة» إلى ربع ريال لمرة واحدة فقط!

جلسنا على كرسيين بجوار الثلاجة، متعمدين ذلك، نكاد نضحك من الفرحة. طلبنا قارورتين من «الكاكولا» ودفعنا الثمن مقدماً بعد أن شك صاحب المقهى بقدرتنا على دفع الثمن وأوشك على رمينا خارج المقهى!

وضعت «القارورتان» أمامنا وفتحهما النادل فتصاعدت منهما رغوة عجيبة. نظرنا إلى بعضنا بعضاً. وبعد تردد توكلنا على اللّه وشربنا منها. شعرت بلذعة في حلقي. وكان بحوزتنا «كدمتان» من الخبز استعنا على ابتلاعهما بذلك المشروب اللذيذ. فتحت الثلاجة لأن أحدهم يريد ثلجاً على مشروبه.. كم كانت الدهشة حقاً أن نرى (المعجزة) حقيقة!

عدت مع زميلي إلى المدرسة ونحن نترنح كالسكارى ونضحك ونتحدث بصوت مزعج مما دفع بحارس بوابة المدرسة أن يماطل بفتح الباب بعد أخذ ورد و«سين وجيم».. حتى زملاؤنا في المكان الكبير فتحوا أكياس نومهم لنحكي لهم العجاب!

في يوم آخر خرجت مع صديقي لنصعد العقبة ـ وما أدراك ما العقبة ـ لكن دهشتنا كانت في أن موتر الرصابي كان قد نهض من كبوته. فرحنا كثيراً وكان الرصابي مع مساعده أشد فرحاً.. وصعد بنا موتر «الرصابي» العقبة دون أن يتوقف فيها لأول مرة!

ابن محمود

كان هذا الصبي ـ الذي لا يعرف اسمه سوى أنه ابن محمود ـ أشهر من «نار على علم» ويعد من العجائب. طغت شهرته وذاع صيته ليس في مدينة تعز ـ عاصمة الإمام أحمد الرهيب ـ وحدها بل في سائر المدن الضحلة والقرى الهامدة وربما على مستوى العالم العربي والدول الأجنبية حيث كان بعض «القناصل» أو الصحفيين ـ عرباً أو أجانب ـ يتكبدون ذلك العناء ليظفروا بمقابلة الأسطورة المرعبة «الإمام أحمد» ليجدوه يلعب مع هذا الصبي في غرفة عرشه بألعاب متنوعة مستوردة للأطفال.

هذا الصبي الأعجوبة أصبح مقرباً من الطاغية «الإمام أحمد» ومحبوباً لديه أكثر من ابنه ولي العهد (محمد البدر) أو أبنائه الصغار من «الجارية» (العباس) و(عبد اللّه).

كان الإمام أحمد قد أخذ هذا الصبي ابن محمود من أحضان والديه وكان ولده ـ الذي كان أشهر (الدراولة) في ذلك الزمن جمالاً وأناقة ـ سائق الإمام المشهور للمهمات الصعبة!

* * *

كنت مع زميلي وزملاء آخرين نخرج من المدرسة الأحمدية عصر كل سبت ونستقل (موتر الرصابي) عبر العقبة إلى ميدان (العرضي).. الساحة الرهيبة التي اشتهرت بقطع رؤوس معارضي الإمام «أحمد». وفي هذه الساحة كانت تقام في غفوة من مجازر الإمام بعض الأنشطة الرياضية مثل كرة القدم بين الفريقين الوحيدين.. فريق «الصحة» ومعظم لاعبيه من الأشقاء «الأحباش» وفريق آخر من لاعبين يمنيين وبعض المدرسين من مصر وفلسطين، وأتذكر أن حارس مرماهم فلسطيني عملاق مهندس في الورشة القائمة بجوار الجامع الجديد أمام عرضي جند «النظام». كان

أعجوبة في طوله يتفرج عليه الناس أكثر من تفرجهم على المباراة والألعاب الأخرى. أطلق عليه اليمنيون لقب (عود بن عنق) الأسطوري! كنا نشاهد أيضاً رياضة «الجمباز» على خشبتين وحيدتين في الميدان وكان بطلها الرياضي (محمد جمال) شقيق الزميل محمود جمال.

لكن مشاهدة هذا الصبي ابن محمود كانت السبب الأهم وراء وجودنا في ذلك الميدان وأمام قصور الإمام التي يخرج منها ابن محمود ورفاقه من أبناء «العكفة» المشهورين، وبعض أصدقائه يحيطون به على دراجاتهم ويسبقهم بدراجته المزودة (بموتور) صغير يعمل بالوقود يصولون ويجولون في أنحاء الميدان ويفر الناس من أمامهم.. وتتوقف مباراة كرة القدم والألعاب الأخرى لنشاهد (ابن محمود) ورفاقه في سباق جنوني مرعب كنا نتسلى به رغم ذلك!

* * *

كان ابن محمود وسيماً بسمرة مليحة (أخضر اللون) ذا عينين يلمع منهما بريق الذكاء الحاد. ربما كان قد سبق عمره بالذكاء وبمهابة تجذب أي شخص إليه، وهذا ما حببه إلى الإمام أحمد.. ولم يعد دور ابن محمود ملاعبة الإمام والاستمتاع بالأنتيكات المستوردة من الخارج بل أصبح يتدخل في الشؤون الداخلية والخارجية أيضاً. وأصبح من موجهي القرار عند الإمام أحمد بل وأكثر أهميه من (سيدي عبد المحسن) الذي كان يأمر وينهى في غيبوبة الإمام أحمد عندما أدمن «المورفين»!

كم كان مظهر ابن محمود عجيباً ولافتاً عندما خلع عليه الإمام رتبة عسكرية كبيرة وألبسه الزي العسكري الحديث والنياشين المتدلية على جانب صدره الأيسر وأصبح (الياور) أن الذي يظهر

مع الإمام أحمد في بعض المناسبات أو المقابلات يقف خلفه أو بجانبه بينما ولي العهد وبقية الحاشية تقف أو تجلس بعيداً!

عندما كان الإمام يضيق بتعز ويستقر في مدينة الحديدة القريبة من (عين السخنة) كان ابن محمود ملاصقاً له. وخصص الإمام له طياراً روسياً ليدربه على قيادة طائرة حربية وحيدة من مخلفات الحرب العالمية وقد أجاد قيادتها في أقل فترة زمنية أدهشت مدربه الطيار الروسي!

وعندما توجه الإمام أحمد على ظهر باخرة صغيرة شبه يخت كان قد استأجرها لنقله للعلاج لأول مرة في إيطاليا كان ابن محمود على رأس الحاشية المرافقة للإمام أحمد.. حتى في مقابلة الزعيم جمال عبد الناصر إثر عودته في عرض قناة السويس!

* * *

ابن محمود.. لا أدري هل جنى الإمام عليه عندما جعل منه أعجوبة عهده أم العكس؟ إذ لم يكن لهذا الطفل ـ الصبي ـ الشاب ذنب عندما لمع كأعجوبة عصره وليس له ذنب أن نسيه الناس عندما اندلعت ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦٢م كبركان هائل وثورة (لم يخلق مثلها في العالم) وغمره النسيان بعدها أيضاً حتى اليوم؟

* * *

لا أعرف حتى اليوم أين قذف به التاريخ أو حدد مصيره؟ لكن المتداول بين الناس ـ كحكايات ـ أنه يعيش في «بريطانيا» في إحدى ضواحي لندن كغيره من أفراد حاشية الإمام المخلوع (محمد البدر) وبعض رموز العهد الملكي البائد.

* * *

ربما لا أجزم ولكنني أعرف أن ابن محمود قد زار والدته ووالده وأسرته في مدينة تعز عشرات المرات كمواطن يمني عادي لأنه لم يسجل في قائمة السفاحين من أبناء أسرة الإمام يحيى وبنيه. هذا الطفل الشاب المدهش الذي ربما أصبح اليوم رجلاً أو كهلاً قد يكون مشروعاً لقصة منفردة أو ربما رواية كاملة.

علوس نزل البير (غبان)

كان أهم مبنى خارج سور مدينة تعز الحجري العظيم وأمام (بابها الكبير) هو مبنى المدرسة الأحمدية التي بناها الأتراك فوق أكمة مرتفعة تطل على المدينة وبابها الكبير. كانت مكونة من دورين وبداخلها مساحة كبيرة لطابور الطلبة تضم عشرات الغرف المخصصة للدراسة في دورها الأسفل، أما الأعلى ففي الغرف نفسها أماكن للمدرسين مع ممرات (وبرندات) تطل على الساحة الخاصة بالدراسة. كانت بوابتها على نمط فريد في البناء بمقدمة ذات قواعد حجرية غاية في الفن. أما الطلبة (الليليون) فقد بنيت لهم ملحقات مرتبطة بالمدرسة ليس لها شبيه في نمط عمارتها إلاّ صورة مصغرة منها للمتحف الحربي حالياً في مدينة صنعاء الذي بناه الأتراك أيضاً.

كنا نطل من شرفات المدرسة ونوافذها على بستان ليس بالكبير ولكنه مخضر تتوسطه بئر حجرية عميقة ارتكزت فيها مضخة ماء ذات مراوح هوائية تدور مع اتجاه الريح. كانت أعجوبة العصر! ركبها للإمام مهندس أجنبي منافساً بذلك والده الإمام يحيى الذي بنى له المهندس (دي تسكر)، مضخة في إحدى «صوافيه» جنوب صنعاء من الحديد شبه أرتوازية لكنها لم تعمل مطلقاً.. وفر المهندس من الإمام يحيى بجلده! ومازالت قوائمها الحديدية

موجودة قد أكلها الصدأ!

* * *

عندما سافرت إلى (مصر عبد الناصر) بعد عدة سنوات وشاهدت السينما لأول مرة وبالذات أفلام رعاة البقر الأميركية التي تؤرخ غزو الرجل الأبيض الأوروبي لأميركا وإبادتهم للهنود الحمر سكانها الأصليين وحرث المزارع الكبيرة وإقامة مضخات للماء ذات محركات هوائية أو مضخات شبه أرتوازية.. تذكرت فعلاً المضخة الهوائية في بير (علوس) في تعز التي بناها الإمام أحمد وشبه الأرتوازية التي بناها الإمام يحيى في صنعاء، والفرق شاسع ومهول بين ما شيده الرجل الأبيض الأوروبي الغازي في مزارع أميركا وبين ما شيّده الإمام يحيى وابنه الإمام أحمد من مضختين الأولى لم تعمل والثانية كانت هزيلة وكلتاهما عدتا من عجائب عهد الإمام يحيى وابنه الإمام أحمد اللذين كان العامة يؤرخون لمواليدهم بهما!

* * *

كنت مع زميلي وآخرين نخرج من المدرسة ونتجه إلى بئر (علوس) لنسبح في البركة الصغيرة المقضضة بالنورة التي تخزن الماء البسيط الذي تضخه المروحة الهوائية إذا ساعدها تيار الهواء. كنا نسبح ونغسل بعض ملابسنا المهترئة. لم نكن نعرف أو نعي قصة هذه البئر وكنا نعتبر اسمها (علوس) كأسماء بئر (باشا) وبئر (علوان) أو بئر (باهوت).. الخ.

لكنني كنت أتذكر بأن هذا الاسم ليس غريباً عني، فقد سمعت أغاني وهجلات للنساء والرجال وهم يقومون بأعمالهم في الحقول.. (علوس نزل البير غبان.. واليل الماء واليلان) الخ... وبعد

إلحاح شديد منا على مدرس اللغة العربية العجوز أخبرنا بقصة هذه البئر وبطلها (علوس) الذي أصبح أسطورة تحكى على مرّ السنين!

كان الإمام يحيى قد عيّن ولي عهده السيف أحمد أميراً على لواء تعز المهم.. واصطحب ولي العهد الأمير الجديد «السيد أحمد» معه من صنعاء (مضحكه) الخاص «علوس» كما هي عادة الأئمة والملوك والسلاطين والأمراء والسيوف من وجود شخص «مضحك» أو شاعر مداح في حاشيتهم أو بلاطهم!

وهكذا استمر علوس يضحك ولي العهد الأمير السيف أحمد مع حاشيته ورجال بلاطه المقربين بنوادره وفكاهاته المضحكة فترة من الزمن لكنه لم يصبح في يوم من الأيام (مهرجاً)، وهذا ما حببه إلى قلوب العامة الذين كان يلتقي بهم في غفوة من ولي العهد الأمير السيف أحمد ليضحكهم بطيبة نفسه وهم يتحلقون حوله.

وكان ولي العهد الأمير السيف أحمد قد استولى على بستان خارج سور المدينة العظيم من أسرة عريقة ببئره المشهورة المنجورة بالحجارة، وكان بين الحين والآخر يخرج مع حاشيته وبطانته من قصره (دار الناصر) بداخل المدينة، والذي استولى عليه أيضاً من أسرة عريقة، إلى البستان خارج السور وبئره العجيبة. وكان دائما بصحبته المضحك الخاص علوس يستمتعون بفكاهاته اللاذعة المضحكة وخصوصاً إذا كانوا منسجمين بانشراح بنشوة الخمرة البلدية (أول قطفة). كان المضحك علوس في بعض الأحيان يحجم عن منادمة ولي العهد الأمير السيف أحمد وحاشيته وبطانته متنشياً يتأمل الأشجار والزهور والخضرة في البستان الذي لم يكن كبيراً. وفي يوم من أيام الانسجام والنشوة والمرح تلك اقتاد ولي العهد السيف أحمد وبعض حاشيته المضحك علوس إلى حافة

«البير» وأدلوه بحبل أمسك بطرفه إلى قاع البئر وهم يضحكون بوحشية وهو يبادلهم الضحك.. ينزلونه حتى تلامس رجلاه الماء ثم يرفعونه وهم يضحكون لعدة مرات حتى انفجر الدم من أصابع يديه وأصيب بالإعياء الشديد فلم يكن باستطاعته الصعود مرة أخرى! كان يصيح مستغيثاً من الموت لكن دون جدوى.. وانزلق الحبل من يديه الداميتين وهوى إلى قاع البئر ومات غرقاً بينما كانت ضحكات ولي العهد الأمير السيف أحمد وحاشيته تطغى على صياح استغاثة المضحك المبكي.. علوس!

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مأساة هذا (العلوس) مغاني وهجلات على أفواه الرجال في مزارعهم وقراهم وفي المدينة. أصبحت أغنية حزينة على أفواه النساء وهن يطحنّ الحبوب فوق المطاحن الحجرية في (سفل) المنازل على ضوء سراج من الكاز المدخن:

- علوس نزل البير غبان ... والبل الماء والبيلان..

معاوية جبل «داكي» على جبل!

لم تكن تخلو مدينة تعز في أي وقت من عشرات المجانين الهوام في شوارعها وأزقتها القذرة. كان معظمهم مؤذياً وعدواني السلوك وقذر المظهر.. بملابسهم الوسخة، إن وجدت، على أجسامهم المتسخة بما تحتويه المدينة من قاذورات لا حصر لها!

لكن «معاوية» الجبل الداكي على جبل، كان أعقلهم ومتميزاً عنهم بنظافته وهيبته في عهد الإمام المجنون الأعظم (أحمد يا جناه)!

* * *

لا أحد يدري متى هبط «معاوية» المجنون اللغز إلى مدينة تعز؟ أنا في الحقيقة لم أعرفه إلاّ في زمان الطفولة الذي عشت معظمه في مدينة تعز في فترات متقطعة كان أهمها فترة «المدرسة الأحمدية».

كانت تعز من أعظم مدن اليمن قاطبة وأشهرها. موغلة في تاريخها الحضاري المبدع. كانت مدينة (لم يخلق مثلها في البلاد). كان معاوية أحد معالم المدينة.. ومزاراً من مزاراتها العديدة وطغت شهرته على شهرة الإمام (أحمد يا جناه)!

كنت مع زميلي وآخرين ندلف كل عصر من «الباب الكبير» متجهين إلى مكانه المفضل المتكىء فيه على درج بوابة أحد الأضرحة القديمة المقضضة بالنورة» يتناول «القات» وأمامه «كوز» ماء بارد، يطل على السائلة التي كانت طريقاً للسيارات القليلة. كان لباسه عجيباً لكنه مهيب. عمامته من الحرير الهندي فوق رأسه كأنه أحد «مهراجات الهند» وأرديته كلها أنيقة رغم قدمها. ذو وجه شبه أسمر وأنف مستقيم وشارب ولحية كثة كأنه «الزير سالم» أو «أبو زيد الهلالي»... كان يبتسم فرحاً عندما نصيح:

ـ كيف حالك يا «معاوية»؟

ويجيب منتشياً بصوت عالٍ مدوياً بعبارته التقليدية:

ـ جبل داكي على جبل!

ونظل متجمهرين أمامه كل يوم نستمع إلى كلامه العجيب وإجاباته حتى يقوم وينهرنا بعد الأصيل للانصراف. لقد كان ذا مزاج عجيب، يتعاطى كل شيء. كان يمارس كل ما طاب له من المحرمات ويصيح إذا استفز قائلاً:

ـ الحلال بيّن والحرام بين... يا ولاد الـ ..

وينهض فجأة فيفر الجميع!

ضاق به الإمام أحمد وهو يمر من أمامه يومياً بسيارته و«عكفته» و«البورزان».. من قصره «دار الناصر» الذي استولى عليه بالقوة من

أعرق أسرة في تعز ـ بيت المجاهد ـ إلى قصوره في «العرضي» أو إلى قصره الجديد في قرية «صالة». كان معاوية عند مرور الإمام أحمد ذهاباً وإياباً يصيح بالإمام قائلاً:

ـ أنا معاوية.. «جبل داكي على جبل»!

وقرر الإمام أحمد ترك «دار الناصر» بالمدينة والاستقرار في قصره في «العرضي» هروباً من هذا المجنون معاوية!

* * *

لا أحد يدري كيف عرف معاوية أن الإمام أحمد قد استقر في أحد قصوره «بالعرضي» عندما خرج الإمام أحمد من بوابة القصر ودهش لما شاهد معاوية متكئاً كالعادة تحت شجرة صغيرة وهو يصيح:

ـ أنا معاوية.. «جبل داكي على جبل»!

كنت وصديقي وبعض الزملاء مولعين بمشاهدة العرض العسكري الصغير في عصر كل يوم حين تنزل ثلة صغيرة من الجيش الحافي بلباسهما التقليدي وأمامها فرقة موسيقية عسكرية صغيرة كان أفرادها من بقايا الأتراك قد أكل عليهم الدهر وشرب، وخلفهم بعض «كباش» الإمام «البربرية» التي يرعاها الجنود متجهين إلى نوافذ القصور ليصيحوا ثلاث مرات بصوت عالٍ لا بد أن يسمعه الإمام:

ـ حفظ الله الإمام.

وتعود الثلة أدراجها مع الفرقة الموسيقية «الهادمة» وكباش الإمام من ورائهم وصوت معاوية يطغى على أصواتهم:

ـ أنا معاوية .. «جبل داكي على جبل»!

ضاق به الإمام أحمد مرة أخرى، وكان باستطاعته أن يقتله أو يمزقه إرباً إرباً ويقدمها لأسوده ونموره وضباعه المفترسة التي يحتفظ بها في ساحة القصر من الداخل في أقفاصها الحديدية، وكم كانت قد التهمت من الشخصيات المعارضة له في غفلة من الزمن! لكن هذه المرة كان الزمن غير غافل، والإمام أحمد بذكائه المتوحش يعرف ذلك.. فهرب من معاوية تاركاً قصوره في «العرضي» واستقر في قصره الكبير الجديد في قرية صالة أجمل منطقة ساحرة يحلم أي إنسان أن يعيش فيها مدى الحياة والتي اقتطعها لنفسه واستولى عليها بكل ما فيها من منازل وأراض وينابيع وأشجار فواكه وصخور عملاقة.. وحتى البشر! وكانت قرية «صالة» بالنسبة للإمام أحمد منتجعاً صحياً بعيدة عن شكاوى وتظلمات رعاياه البؤساء.. وأيضاً لمكسب مادي وذلك عن طريق الجمارك المفروضة على بضائع الشاحنات الهزيلة التي كانت تمر بصعوبة من عدن إلى تعز بالقرب من القصر وتتحكم نقطة خشبية في طريقها.

* * *

لا أحد يدري أيضاً كيف عرف معاوية أن الإمام أحمد قد استقر في قصره الكبير الجديد في قرية «صالة».. فوجده الناس متكئاً كعادته أمام بوابة القصر يرمي ببقايا «القات» لحيوان (الوضيحي) «المها» النادر الذي كان يملكه الإمام أحمد.

عندما خرج الإمام من بوابة قصره الكبير الجديد بقرية صالة فجع وأصابه الاكتئاب وهو يشاهد معاوية يصيح:

ـ أنا معاوية.. «جبل داكي على جبل».

عندما غفا الزمن يوماً ما.. اختفى معاوية هذا الجبل الداكي على جبل!

الوشاح

للإمام أحمد عشرات السيافين المهرة في قطع رقاب معارضيه من الوطنيين والسياسيين والعلماء والأدباء والمفكرين بل ومن المواطنين العاديين أيضاً. لكن السياف «الوشاح» كان أشهرهم وأبشعهم واستطاع أن يزيح الآخرين ويصبح هو السياف الأوحد وقرة عين الإمام أحمد وذراعه اليمنى!

وذاع صيته المرعب في جميع أرجاء اليمن من مدنه الخامدة إلى قراه الهادمة وأصبحت الأمهات يسكتن أطفالهن ليتوجهوا للنوم بذكر اسمه فقط! حتى الحيوانات والطيور والحجر والشجر كانت ترتعش وتموت لذكر اسمه فما بالكم بطلبة صغار في المدرسة «الأحمدية» بتعز ننام فيها وهو في مخيلتنا ونصحو وهو أمام وجوهنا!

يهبط من قصر الإمام «بالعرضي» إلى مدينة تعز كوحش كاسر مفترس بلباسه الأزرق المميز للحرس الخاص للإمام (العكفة) متمنطقاً (جنبية) وحزام و(طيار) الذخيرة وبندقية (الزاكي كرام) الألمانية.. يرعب بائعات «القات» الهابطات من «صبر» فيعطينه ما يشاء ويمر على حوانيت الباعة فيأخذ أيضاً ما يشاء.

* * *

بعد أحداث ثورة الجيش عام ١٩٥٥م بقيادة الشهيد «أحمد الثلايا» التي استطاع الإمام أحمد احتواءها وإفشالها والقضاء على كل رموزها ـ حتى أخوته ـ كان (صوان) ناظر مدرستنا ذو اللباس الألماني النازي للفروسية وسوطه الذي يستطيع أن يطال به ـ من أجل الإمام أحمد ـ أي طالب متمرد ولو كان وراء الجبال أو السهول والوديان اليمنية وهو على صهوة جواده «الأرقش» المهدى

له من الإمام (أحمد) يأمرنا في طابور الصباح بأن نتجه في خطوات منتظمة في عدة تشكيلات بلباسنا الرسمي المكون من طاقية (كوفية) من (الرقع) و(زنة) بيضاء من قماش (المريكني) القطني الخاص بأكفان الموتى! أما الأقدام فهي حافية طبعاً كمثل الجيش الحافي والرهائن وبقية الشعب أيضاً!

* * *

كان المدير صوان يسوقنا من المدرسة الأحمدية لنصعد العقبة المرصوصة بالحجارة منذ عهد الملكة (أروى) إلى ميدان العرضي لنشاهد قطع رؤوس عشرات المعارضين والمشاركين في ثورة الجيش عام ١٩٥٥م وغيرهم. وكما كنا نحن نساق من المدرسة إلى الميدان كان الشيخ (المحجاني) سجان قلعة «الرهائن» يسوق الرهائن أيضاً ليشاهدوا المنظر البشع نفسه الذي نشاهده نحن!

كان الإمام أحمد وحاشيته وحرسه الخاص (العكفة) وبعض قناصلة الدول العربية والأجنبية المرغمين على الحضور في منصة مطلة على ساحة الإعدام جالسين على كراسي مصنوعة من خشب صناديق بضائع التجار ـ كعرش الإمام أحمد نفسه ـ يشاهدون تفنن «الوشاح» سياف الإمام وهو يجندل الرؤوس من رقابها ويمسح الدماء العالقة بسيفه على أجساد الضحايا كأنهم خراف تجزر في يوم عيد.

كنت أنا وزميلي (عبد اللطيف الربيع) نخفي أعيننا عندما ينهال سيف «الوشاح» على الرقاب وتظل ليالينا في المدرسة كوابيس وأحلاماً مزعجة لا نهاية لها.

* * *

لا أتذكر متى حدث ذلك؟ بعد شهر أو ربما بعد سنة أو أكثر لكن

بالتأكيد بعد عام ١٩٥٦م العام الذي كدنا نفتك فيه بالناظر «صوان» عندما حاول أن يمنعنا من الخروج من المدرسة في المظاهرات أيام «العدوان الثلاثي» على مصر، ورغم صرامة الناظر «صوان» إلاّ أننا حاصرناه وكدنا نفتك به، لكنه قفز من نافذة مكتبه إلى الأرض وكسر ساقه وفرَّ هارباً!!

أتذكر أنه بعد ذلك بفترة زمنية قصيرة أيقظني صديقي وزميلي عبد اللطيف الربيع وأصدقاء وزملاء آخرون يخبرونني بفرح شديد بأننا سنشاهد إعدام «الوشاح» سياف الإمام أحمد الأوحد. قفزت من مرقدي وأنا غير مصدق لماذا؟ وكيف؟ وما السبب؟.. الخ.

* * *

الحكاية أن الوشاح كان لديه «كوز» فخاري للماء وضعه في مكان معرض للبرودة وأن جندياً «نظامياً» من الجيش قد عطش فأقدم على الشرب من ذلك الكوز وشاهده الوشاح فأطلق عليه رصاصة من بندقيته وأرداه قتيلاً في الحال.. وسجن الوشاح في سجن «الشبكة» الشهير في المدينة لتهدئة الضباط وأفراد الجيش «النظامي» و«البراني» المحيطين بقصور «العرضي» الخاصة بالإمام وكانت ثورة عام ١٩٥٥م لاتزال دماؤها لم تجف بعد!

* * *

هرعت مع زميلي مع من هرع إلى ساحة المدينة التي يطل باب سجن «الشبكة» عليها. رجال ونساء وشباب وأطفال لا حصر لهم تسابقوا جميعاً بحقد دفين ليشاهدوا خروج هذا الغول «الطاهش» المفترس من باب سجن «الشبكة». لم تستوعب الساحة كل تلك الجماهير فتسلقوا أشجار (الطولق) و(الحمر) العملاقة. كنت مع زميلي قد استطعنا أن نكون في مواجهة البوابة لنرى خروجه. ربما

أكون أنا وزميلي أكثر حقداً عليه لأنه عندما كان يرى والدي أو والد زميلي الخارجين من السجون يمد يده اليمنى ويتحسس رقبتهما بسخرية ويقول: «متى سأنال هذه الرقاب الدسمة؟».. لكن حقد مئات من أفراد الأسر التي نال رقاب أبنائها ورجالها فعلاً كان أكثر من حقدنا وألمنا.

كان مشهداً لا أعتقد أن التاريخ قد سجل مثله عندما أخرج هذا «الوشاح» من باب سجن (الشبكة) كما يخرج (رضيع) البقرة من (سفل) البيت لأول مرة بعد مولده. يختذل جسمه بشدة ويحاول إعادة أرجله الأمامية من عتبة (السفل) إلى الداخل رغم أن أفراد الأسرة يحاولون جاهدين إخراجه لبيعه للجزار!

هكذا كان حال (الوشاح) عندما خرج من باب سجن (الشبكة) إلى سيارة (جيب) عسكرية من مخلفات الحرب العالمية الثانية والعساكر يصيحون به:

ـ شدّ (حزامك) مولانا معك!

وانطلقت به السيارة من المدينة عبر «العقبة» متجهة إلى ميدان الإعدام «بالعرضي» ونحن نجري وراءها لاهثين لكننا سبقناه إلى الميدان لنأخذ أماكن جيدة للرؤية. كان ميدان «العرضي» الذي شهد عشرات الشهداء الذين قطع رقابهم هذا الوشاح قد اكتظ بعشرات الآلاف ليشاهدوا نهايته.

لم يحضر الإمام (أحمد) إلى المنصة الرئيسية. كان متألماً على سيافه الأوحد، والأصح مرعوباً من الحشود الهائلة من المواطنين ومئات من أفراد الجيش «النظامي» و«البراني» و«الجندرمة».. بل ووجود جميع القناصل العربية والأجنبية ومن إليهم بدون دعوة رسمية. كان ينظر إلى الساحة من نافذة قصره المطل عليها..

كان الوشاح يستغيث بأعلى صوته بالإمام ويتوسل الناس وقد جثا على ركبتيه. واقترب منه أحد السيافين وحاول مع زميلين له أن يرفعاه من الأرض وهو يصيح ويعود إلى الأرض متهاوياً.. ويرفعونه من جديد كقطنة مبتلة لكنه يعود إلى الأرض.. وصاح به أحدهم:

ـ كن أسداً!

وهوى بسيفه على عنق الوشاح.

انطلقت صيحات التهليل من جموع الناس الغفيرة التي أدركت أن إعدام الوشاح كان بداية لنهاية ذلك العهد المظلم.

الساحر علي خالد

لا أحد يدري كيف هبط هذا الساحر (علي خالد) إلى مدينة تعز وأصبح حديث الناس والنساء والشباب والأطفال ـ داخل المدينة ـ بل وفي أرجاء واسعة خارجها!

لا أحد يعرف له مسكناً أو مأوى ولا أين يعيش وهل له أسرة أو قرية أو قبيلة ينتمي إليها؟!

قيل بأنه من منطقة ناحية «ماوية» وقيل ـ أيضاً ـ إنه هاجر إلى «الهند» وتعلم هناك بعض حيل السحر ثم عاد.. يظهر قبل الظهيرة ويغيب قبل المغيب دائماً!

وعلى الرغم من أن ملبسه من الرأس حتى القدم شبيه بلباس «الدراولة» المشهورين فإن مظهره كان رثاً وغير أنيق.

لم يستطع أحدٌ أن يقرر عمره ولو ـ بالتخمين ـ بعضهم قال إنه كهل وآخرون قالوا إنه ما زال شاباً!

* * *

عندما كنت وصديقي نخرج من المدرسة «الأحمدية» نجوب الأماكن المحببة لدينا كنا نجده في كل مكان. تارة نراه يمشي الهوينا وتارة يهرول. ساعة يضحك وأخرى يتطاير من عينه الشرر. مزيج هو من الفرحة والرعب. كنا نفرح لرؤيته ونقترب منه ونفزع رعباً منه ونهرب!

كنا نتابعه ونشاهد فزع بائعات «القات» والفواكه المشهورة (الفرسك) والرمان (و(مشاقر) الريحان والورد الهابطات من جبل صبر بلباسهن المزركش الجميل الذي يبرز مكان أنوثتهن اليانعة و«مشقر» الريحان ذو اللون الغادق يتدلى من خدودهن.. جميلات خلقهن الله في أحسن تقويم. وكذلك بائعات الخبز «الخمير» المتنوع من ساكنات المدينة نفسها. كان هذا الساحر علي خالد إذا مرَّ من أمامهن يعطينه ما يحتاج له بدون طلب منه.. قات ـ فواكه ـ مشاقر صبر ـ وأقراص من خبز «الخمير»..

كان سبب رعب فتيات «صبر» وبائعات الخبز «الخمير» المتنوع من هذا الساحر علي خالد كونه يستطيع إيهامهن بتصديق سحره حيث يحول حليهن الذهبية المتدلية على صدورهن إلى ثعابين وخواتمهن إلى «عقارب» وأشياء أخرى لا وجوب لذكرها! يوماً ما شاهدت إحداهن وهي تصرخ وترمي حليها وتجري مفزوعة تاركة قاتها وفاكهتها.. وفزعت معها هارباً!

* * *

أثناء العدوان الثلاثي على مصر كان المسافرون العائدون من مدينة «عدن» يوزعون صوراً للزعيم جمال عبد الناصر ـ وبالذات صورته وهو يخطب من على منبر جامع الأزهر ـ وصوراً أخرى للطائرات والدبابات وفرق المظلات والسفن الحربية للأعداء وصوراً لرجال

المقاومة والجنود المتطوعين.. ولصفوف من فتيات وفتيان «الفتوة» باللباس العسكري والبنادق.

كان المواطنون يتهافتون عليها ويعلقونها في منازلهم وبالذات تلك الخاصة بالزعيم جمال عبد الناصر. لكن في المقهى الوحيد خارج الباب الكبير للمدينة «باب الكبير» وفي مطعم صغير داخل المدينة علقت على الجدران جميع الصور.

كان هذا الساحر علي خالد إذا دخل «المقهى» أو المطعم يوهم الزبائن ـ وأنا منهم ـ بأنه يستطيع تحويل الصور الملصقة على الجدران من صور جامدة إلى صور حية تتحرك. ويصبح الوهم حقيقة وتنطوي الحيلة علينا مندهشين لسماع أزيز الطائرات والقنابل ومرهوبين ونحن نشاهد الدبابات تتحرك وتقذف قنابلها المدوية، ونهتف عندما يندلع صوت الزعيم جمال عبد الناصر وهو يخطب على منبر الأزهر. وما هي إلاّ لحظات وتعود الأمور كما كانت كأن شيئاً لم يحدث، بينما يكون هو قد تناول وجبته الدسمة من كل ما يشتهيه في المطعم أو المقهى الوحيدين في المدينة!

* * *

تصادف أن خرجت من المدرسة «الأحمدية» مع أستاذ الدين الكهل «الأحمق» ـ كما كنا نلقبه لقسوته ـ لكي يحملني أغراضه التي سيشتريها من السوق. وفجأة صادفنا الساحر علي خالد. كانا يعرفان بعضهما بعضاً لكن المودة بينهما كانت غير واردة.

صاح الساحر علي خالد منادياً:

ـ يا فقيه!

فزع الأستاذ الفقيه وفزعت معه أيضاً. وقال له الساحر علي خالد ساخراً:

ـ كم الساعة يا فقيه؟

وارتبك الأستاذ الفقيه وارتبكت معه. وارتعشت أصابع يده وهو يتحسس ساعته الموضوعة في جيبه والمربوطة بسلسلة ناعمة من فتحة جيب ردائه وانتزع السلسلة ورماها مع الساعة إلى الأرض كأنها ثعبان ناعم الملمس! وركض مهرولاً مذعوراً وأنا معه.

* * *

أذكر أن الساحر (علي خالد) مرّ ذات مرة، وكان والدي ـ في إحدى زياراته لمدينة تعز من مقر عمله (المنفى) ـ مع صديقه الشيخ يحيى منصور والقاضي عبد الرحمن الحداد رحمهما الله وبعض أصدقائهم في فناء بيت «الحكيم الجيلاني» رحمه الله وباغتهم بنوع من التحدي وأخذ قطعة من العملة النحاسية «بقشة» وقال:

ـ سأحولها الآن إلى جنيه ذهب..

أطبق بيده اليمنى عليها وبدأ يفركها ثم يزيح يده اليمنى صائحاً:

ـ تفرجوا.. أصبحت جنيه ذهب.

لقد شاهدت بريق الذهب فعلاً لكن والدي أمسك بكتفي بينما صمت الآخرون. وابتسم والدي وقال له:

ـ إنها «بقشة»!

دهشت أنا وضحك الآخرون بينما أعاد علي خالد فركها من جديد وهو يصيح:

ـ إنها جنيه من ذهب.

يهز والدي رأسه بالنفي.. وتصبح معركة تحد بينهما. حتى أنا أصبحت أراها كما هي «بقشة».. واستمر الساحر علي خالد يفرك العملة النحاسية «البقشة» ليحولها إلى جنيه ذهب دون جدوى.

ونظر إلى والدي بحقد والعرق يتصبب منه وانسحب مولياً الأدبار وهو يصيح بوالدي متهماً إياه بأن لديه علماً في كتب السحر! وانتشر نبأ ما حدث للساحر علي خالد ووالدي وكنت أسمع باعتزاز منادمات الناس القائلين:

ـ لقد هزم «النقيب» الساحر علي خالد!

* * *

كانت هذه الحادثة أحد العوامل التي جعلت الناس لا يصدقونه لكن العامل الأهم الذي دفع الناس لازدرائه وكرهه هو عندما كان يحضر دائماً في ميدان «العرضي» ساحة الإعدام، والإمام متربع على عرشه المصنوع من أخشاب صناديق التجارة في المنصة الرئيسية الهزيلة بحشمه وخدمه وحرسه وعبيده، ليشاهد بتر رؤوس الأحرار الشرفاء بسيف «الوشاح» سيافه الرهيب. كانت ثلة من «العكفة» وعساكر «النظام» تكوّن حلقة مقفولة بالشهيد المحكوم عليه بالإعدام والسياف «الوشاح» وشخص ثالث هو الساحر علي خالد. كان يرفع يديه مهللاً إثر قطع رأس الثائر الشهيد ويصول ويجول في (الحلقة) عسى أن ينال إعجاب المواطنين، ويشير عليهم بأن يصفقوا ويهتفوا بحياة الإمام واللعن لهؤلاء الشهداء.. لكنهم ينسحبون والدموع الحزينة تسيل من مآقيهم الراكدة.

* * *

واختفى هذا الساحر علي خالد باختفاء السياف «الوشاح» والطاغية الإمام «أحمد» و«طاهش الحوبان».

الفصل الثاني

كتاب القاهرة

الطائرة

عندما قرر والدي رحمه الله إرسالي إلى الجمهورية العربية المتحدة (مصر عبد الناصر) للدراسة سنة ١٩٥٨م كدت أطير فرحاً لأنني سأسافر إلى بلاد بعيدة وسأركب لأول مرة على طائرة من حديد تطير في السماء!

كان والدي قد أعدني إعداداً جيداً في مدرسته الخاصة ومن مكتبته العامرة التي عاد بها من عدن عام ١٩٤٦م، وألحقني بالمدرسة «الأحمدية» بتعز لاجتياز المرحلة الابتدائية والمتوسطة هناك. كان لديه أمل في صديق عزيز في تسهيل سفري.. وتمَّ ذلك.

اشترى لي بدلتين وقميصين و«كرافتة» وساعة وشرّاباً وجزمة كنت ألبسها جميعها لأول مرة في حياتي. لكنني كنت قد تذكرت من قراءتي لكتاب «القراءة الرشيدة» المدرسي المزين بالصور ذلك التلميذ المصري الذي كان لباسه طربوشاً فوق الرأس و«شورت» وقميصاً أنيقاً، وكانت الخادمة توصله إلى المدرسة عبر الشوارع

بحقيبته الجلدية.. وتلميذاً آخر طار طربوشه من نافذة القطار السريع. كانت تلك صوراً لا تمحى من مخيلتي، لذلك حاولت جاهداً أن أحصل على طربوش بأي طريقه ولو كانت غير مشروعة. وفعلاً استطعت ذلك دون أن أعرف كيف واتتني الجرأة في جامع (المظفر) أن أخطف طربوش أحد الآباء من أصل «شامي» أثناء وضعه على حافة «البركة» وهو يتوضأ للصلاة.. وطرت به هارباً مخفياً إياه حتى عن والدي.

* * *

وصلت صباحاً إلى مطار (الحصب) الترابي وأثارت الطائرة زوبعة من الغبار والأتربة والدخان كأنها طائر العنقاء الأسطوري واستقرت بالقرب منا بهديرها المدوي.

لا مكان يجلس فيه المسافرون أو يظلهم من الغبار والشمس. كانت يدي بيد والدي ممسكاً بها بشدة. ودعني بقبلاته وتسلقت سلم الطائرة بسرعة وشنطتي بيدي واستقريت في الكراسي المقعرة إلى الخلف بجوار أحد زملائي الأصغر مني، أما أكبرنا فكان مسافراً للعلاج من مرض جلدي إلى روما.

* * *

كانت الطائرة من طراز (داكوتا) ذات المحركين التابعة للخطوط الأثيوبية تربط اليمن بالعالم الخارجي في رحلة واحدة أسبوعية أو ربما في منتصف كل شهر من مدينة «أسمره» إلى مدينة تعز.

بدأ تشغيل المحرك الأيمن واستغرق ربع ساعة ثم المحرك الأيسر واستغرق أكثر من ذلك وعلا دويها بشدة وشعرنا بتحركها.. وارتفعت قليلاً وأنا أنظر من النافذة تغمرني الدهشة وهي تتمرجح ذات اليمين وذات الشمال تعلو وتهبط. شعرنا برجة كبيرة وتيار

هواء شديد. كان بابها قد انفتح قليلاً ورجل قوي البنية يربطه بحبل متين!

كنت مع زميلي نضحك بصوت مرتفع عندما ترتفع فجأة وتهبط بنا بشدة كأن أحداً يدغدغنا بينما كان الآخرون ينظرون إلينا شذراً تعلو وجوههم العابسة مسحة من القلق والخوف. لم أشعر أنا وزميلي بهذه المخاوف وهذا القلق الذي أصاب الآخرين، ربما لأننا نركب الطائرة لأول مرة ولا نعرف مخاطرها وكوارثها كأننا نركب حماراً أو بغلاً. وسخرنا لفجع الآخرين وفزعهم لكنني فزعت وشهقت مستغرباً «يا إلهي..» وأنا أنظر من النافذة وأرى السحب والجبال تلاحقنا. وبدا اللون الأزرق للبحر الممتد إلى ما لا نهاية والذي أراه تحتي.. قلت لنفسي هذا هو «البحر» إذاً! وكنت أعتقد أنه أكبر من «بركتنا» في قريتي أو أكبر من (عصيفرة) في تعز، لكنه كبير.. كبير جداً.. وبواخر وسفن تعبر فيه تاركة عبابها الأبيض يتموج خلفها.

* * *

قبل عشرات السنين عاد أحد المهاجرين من «وراء البحار» إلى منطقته في اليمن وكان أول عمل قام به زيارة «الشيخ» للسلام عليه وتقديم فروض الولاء والطاعة.

في ديوان «الشيخ» سأله الشيخ عن رحلته وكيف وصل من وراء البحار؟ وحكى له رحلته وكيف أنه وصل بواسطة «الطائرة» التي تطير في السماء وشرح له بأنها من حديد وبداخلها «كهرباء» ومقاعد للمسافرين من بلد إلى بلد وأخيراً إلى مدينة أسمره في أثيوبيا. ودهش الشيخ مع من في حضرته ولم يصدق واعتبر بأن هذا «الرعوي» العائد من وراء البحار يسخر منه وأمر بحبسه وقيّده في سجنه الخاص.

ومرت عدة أشهر عندما قامت الطائرات البريطانية من قاعدة «عدن» لقصف بعض المدن اليمنية. شاهدها الشيخ بأم عينه. وندم وقام بنفسه بفك قيد الرعوي المهاجر وأجزل له العطاء وطلب منه المعذرة والمسامحة.

* * *

كم شعرت بالروعة عندما بدأت الطائرة بالهبوط في مطار أسمره. الأشياء الصغيرة بدأت تكبر.. من جبال وأشجار وبيوت وشوارع وبشر.. كان الوقت ظهراً ومياه الأمطار لم تجف بعد والغيوم الداكنة بدأت تنقشع. كان الجو منعشاً وكنا في صالة (الترانزيت) الفخمة بأثاثها وأنوارها وصوت الموسيقى يصدح في أرجائها ومأكولات ومشروبات وفاكهة قدمت إلينا وخليط من كل الأجناس رجالاً ونساء وأطفالاً ينتظرون معنا.

* * *

حلّقت بنا طائرة أكبر بكثير من الأولى ذات أربعة محركات مروحية من طراز (دي سكس) وكنت جالساً مع زميلي على مقعدين مجاورين. أدهشني جو الطائرة من الداخل والإنارة الهادئة وصوت الموسيقى الخافت وجمال المسافرين والمسافرات.. والنداءات المتكررة بالتعليمات والإرشادات التي لم نفهم منها إلاّ الخاصة بالإشارة الحمراء بأن نعود إلى مقاعدنا ونربط الأحزمة لحالة الطقس الرديء بمطباته.

جلست امرأتان في الكراسي الأمامية لنا ممن تفنن الخالق الباري عزت قدرته في خلقهن. تدلى شعرهن المندوش الطويل من خلف الكرسي إلى أمامنا. كان عجيباً كأنه من خيوط الذهب.. حاول زميلي أن يلمسه لكنني نهرته بشدة!

جاء إلينا كبيرنا من مقدمة الطائرة ليتفقد حالنا وأرشدنا كيف نأكل بالشوكة والسكين والملعقة وأوصانا أن لا نوسخ ثيابنا ولا نزعج المسافرين وبأن نكون هادئين وبأن هنالك حماماً في أسفل الطائرة إذا احتجنا لقضاء (الحاجة).. الخ.

* * *

حرت مع زميلي عندما قدمت لنا مضيفة الطائرة ذات اللباس (والمقرمة) البيضاء أطباق الطعام. كانت شبه سمراء (أمهرية) (حميرية) كأنها من شابات مأرب (مشرق اللّه).. كيف نتعامل مع الملعقة والشوكة والسكين حسب إرشادات زميلنا الأكبر؟ شوكة تسقط مني وسكين تسقط منه.. ونلتقطها ونحن نكتم ضحكاتنا قدر الإمكان. كان لا بد أن نتذوق المأكولات التي قدمت لنا بسخاء. انحنينا واستعملنا كل أصابعنا بخفية أيضاً! ومسحنا أيدينا بقطعة القماش التي قدمت إلينا. لم تكن كافية لتزيل ما علق بأيدينا من بقايا المأكولات، وكان لا بد أن نتجه إلى الحمام لنغسل الأيدي ونقضي الحاجة.

سرنا في الممر ونحن نرى تلك الوجوه لنساء ورجال متعددي الألوان. وعند باب الحمام حاولنا أن نفتحه لكننا لم نستطع. ونظرنا إلى أعلى حيث شاهدنا إشارة ضوئية حمراء. وفزعنا وعدنا مهرولين نحو مقاعدنا. لاحظت تلك المضيفة السمراء فأخذتنا من جديد إلى باب الحمام وهي تبتسم لنا وللآخرين وحاولت جاهدة أن تشرح لنا بأن الإشارة الحمراء ليست للخطر إنما لأن الحمام مشغول وعندما يكون خالياً تضيء إشارة خضراء!

قبل الأصيل نبهنا بأن الطائرة تمر فوق نهر (النيل) العظيم. ونظرت من النافذة.. «يا إلهي» أهذا هو نهر النيل! يتلوى كثعبان وكنت

أحسبه كغيل (براقة) أو كسائلة (نخلان) لكنه شيء آخر ومهول. كبير.. كبير جداً يخترق وادياً أخضر ومدناً وقرى على ضفتيه. كل هذه الأشياء التي كنت أتخيلها صغيرة كم هي كبيرة الآن!؟ .

بعد المغيب بساعة أو أكثر نبهنا مرة أخرى إلى أن الطائرة تمر الآن فوق مدينة (القاهرة). ونظرت من النافذة.. كأنها بحر من الأنوار الساطعة المتلألئة لا نهاية لها. ذكرتني بما كنت أشاهده مع والدي بمنظار المقرب من على سطح منزلنا الواقع في إحدى قمم جبل (التعكر) لنشاهد النجوم والكواكب في المساء بأضوائها المتلألئة.

كم هي رائعة مدينة (القاهرة) ليلاً وبالذات من الطائرة!

* * *

كان وجهي لا يزال ملاصقاً للنافذة عندما هبطت بنا الطائرة في مطار (ألماظة) وكان في استقبالنا عند سلم الطائرة مندوب السفارة المرحوم حسن الحبيشي الذي أخذنا إلى إحدى صالات الانتظار ليكمل معاملة الدخول وأخذ حقائبنا.

القاهرة

في صالة الانتظار في مطار (ألماظة) شاهدت من خلال النوافذ الزجاجية الواسعة هبوط وإقلاع عشرات الطائرات بانبهار شديد. قدمت لنا بعض قطع من البسكويت والشاي وعصائر الفواكه أثناء انشغال مندوب السفارة المرحوم الأستاذ الحبيشي بإكمال معاملة الجوازات وأخذ الحقائب. كنت مصمماً على وضع الطربوش فوق رأسي! قال لي الأستاذ الحبيشي:

ـ أبعد هذا من على رأسك. لا تلبسه مرة أخرى!

حاولت أن أشرح له ما قرأته في كتاب «القراءة الرشيدة» فضحك وقال:

ـ هذا كان زمان يا بني.. أيام الملكية والباشوات.. أما الآن بعد ثورة «ناصر» فمن العيب أن يلبسه أحد وسوف يضحك منك الناس ويسخرون!

ركبنا معه بسيارة السفارة من بوابة المطار عبر شارع تحفه من الجانبين أعمدة الكهرباء المضاءة والأشجار المنسقة وعلى ضفاف الشارع مبان وقصور و«فيلات» بحدائقها الغناء المضاءة من الداخل... حيث وصلنا إلى ميدان «رمسيس» على يميننا محطة «رمسيس» للقطارات وأمامنا تمثاله العملاق المسلطة عليه وعلى نافورته المائية الأنوار بألوانها المدهشة.

وقفت السيارة بنا أمام فندق «فكتوريا» بالقرب من الميدان. صعدنا عدة درجات إلى باب الفندق الزجاجي الذي قام بفتحه لنا رجل أسمر بطربوش أحمر على رأسه وبدلة خضراء مزركشة. انحنى لنا مشيراً بيده اليمنى إلى صالة الاستقبال ويده اليسرى على صدره كنوع من الترحيب الحار. ومددت يدي وسلمت عليه بالطريقة اليمنية «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» واخترت «بأحسن منها». دهش الرجل وابتسم ورفع طربوشه الأحمر من على رأسه مبالغة في الترحيب! لكزت زميلي بكوع يدي مشيراً له نحو طربوش الرجل وبأنه لا يلبس «شرتاً» وعند المدخل حاولت خلع حذائي فنهرني المرحوم «حسن الحبيشي» وقادني إلى كرسي عتيق مريح وسط حركة دائبة وأضواء باهرة وأثاث فخم لم أشاهد مثله في حياتي!

* * *

أخذ حقائبنا أحد العاملين إلى المصعد، بلونه الأسمر وطربوشه الأحمر وبدلته الخضراء المزركشة، وفتح لنا باب المصعد وضغط بإصبعه على «زر» حيث شعرنا بأننا نرتفع. شيء مذهل أن تستخدم المصعد لأول مرة، هذا الصندوق السحري!

* * *

كنت لأول مرة أشاهد غرفة فسيحة بسريرين وافرين وفراش نظيف وإضاءة بالكهرباء مريحة للنظر بجدرانها الملساء التي لا تتيح فرصة لذرة غبار أن تعلق بها... وقاعها المبلط بقطع من الخشب المصقول باللون الرمادي اللامع تتوسطها مفرشة (فارسية) وبجوار كل سرير (كمدينو) و«أباجورة» فوقه.

عندما دخلنا الغرفة كانت شنطتي مع شنطة زميلي قد وضعتا في أسفل الغرفة فوق قاعدة من الخشب وبجوارها دولاب الملابس الخشبي العتيق بمرآته الكبيرة.

استمريت مع صاحبي كل يهتز فوق سريره بمرح شديد! بعد فترة شعرت مع زميلي بأننا في أمس الحاجة «للتبول وقضاء الحاجة».. وجدنا باباً داخل الغرفة فتحناه لنجد أنفسنا في مكان بهرتنا أنواره ورخامه اللامع. تأكد لنا أنه الحمام لكن أين هي «النقرة»؟ لم تستغرق حيرتنا كثيراً، كانت الضرورة قد دفعتنا لقضاء «الحاجة» في أي فجوة مفتوحة. كانت هناك أمامنا سلسلة صغيرة متدلية وفي نهايتها مقبض عاجي تعجب صاحبي له وأمسكه بيده وشد السلسلة إلى أسفل فدوى هدير ماء مزعج لم يتوقف! خرجنا مسرعين بعد أن أقفلنا باب الحمام وأغلقنا باب الغرفة أيضاً واتجهنا نحو زميلنا الأكبر في نهاية الممر ودخلنا عليه فزعين. كان قد خرج من حمام غرفته وشرع في ارتداء ملابسه الأنيقة. تساءل عن فزعنا

هذا فشرحنا له بأن المياه ربما قد غمرت الغرفة بل وممر الطابق وربما ستغرق الفندق كله، وأننا لم نستطع إيقافها!

ضحك زميلنا وأكمل هندامه وخرج معنا. كنا ننظر إلى الممر بترقب وتأكدنا بأن المياه لم تخرج من الغرفة بعد. وفتحنا باب غرفتنا وتأكدنا أن المياه لم تغمرها بعد. وفتحنا باب الحمام وتأكدنا بأنه لا وجود لأي صوت مياه. ضحك كثيراً وأخذنا معه للهبوط بالمصعد لتناول وجبة العشاء في مطعم الفندق حيث اتبعنا إرشاداته في تناول وجبة العشاء بالملعقة والشوكة والسكين بين الأنوار الخافتة وصوت الموسيقى الناعم.

* * *

فتحت مع زميلي باب الشرفة التي كانت مسدلة عليها ستائر مزركشة بيضاء وأطلّينا من حافتها على عالم عجيب لم يكن يخطر لي على بال ولا يمكن أن أصدق مشاهدته حتى في خيالي أو في أحلامي! وتجول بصري من علو على أنحاء الشارع الذي يعج بعربات «المترو» و«الترام» وعربات «الكارو» التي تجرها الخيول بأجراسها ذات الرنين المتميز الذي ذكّرني بأجراس البقر والثيران في قريتي.. والسيارات والأتوبيسات والأضواء متعددة الألوان.

سهرت مع زميلي على حافة الشرفة «البلكونة» حتى مطلع الفجر عندما سمعنا صياح صبية بصوت عالٍ ينادون: «أهرام.. أخبار.. جمهورية»!

* * *

فتحنا باب الغرفة على طرقات متكررة من المرحوم الحبيشي وبجواره زميلنا الأكبر في كامل لباسه المهندم. لم نكن قد غفونا لحظة وكانت ملابسنا لاتزال كما هي.

أخذنا إلى مقر السفارة. مقر مهيب بحديقة غناء وأشجار «المانجو». وفي اليوم التالي تقرر سفرنا إلى مدينة «بني سويف» حيث توجد بعثة طلاب يمنيين يمكن أن يساعدونا في المأكل والإقامة حتى تتقرر لنا منحة مالية بعد ذلك.

فرحت كثيراً عندما أخبرنا المرحوم الحبيشي بأنه سيأخذنا إلى حديقة الحيوانات وزاد فرحي أكثر أنه سيأخذنا بعد ذلك إلى السينما. في حديقة الحيوانات الكبيرة شاهدنا أنواعاً من الحيوانات والطيور والأسماك والزواحف متعددة الألوان والأحجام لم تكن تخطر على بالي. كنت أبحث بلهفة عن الوحش المرعب «طاهش الحوبان» لكنني لم أجد شبيهاً له كما وصف وعلق في ذهني. توقفت مبهوراً أمام «الغوريلا»، قلت لنفسي هذا هو «الغول» الذي تحكي لنا أمهاتنا وجداتنا عنه. وتوقفت أمام «الشمبانزي» وقلت لنفسي هذه هي «الصياد» أو «العظروط» أو ربما «أم الصبيان» أو «جارية البيت» التي كانت أمهاتنا يرعبننا بذكرها لإرغامنا على النوم. أما وحيد القرن فقد ذكرني «بتبيع» الليل الرهيب!

* * *

أمام سينما «كليبر» كنت مع زميلي والمرحوم الحبيشي نقطع التذاكر، وكان أمامنا متسع من الوقت فأخذنا إلى محل «جنة الفواكه» المقابل للسينما. سألنا ماذا نريد أن نشرب؟

ـ عصير جوافة.. فراولة.. برتقال.. موز باللبن..؟

شربت مع زميلي كل الأنواع وبلهفة شديدة. دهش المرحوم الحبيشي الذي مالبث أن ضحك كثيراً حتى كاد يسقط على الأرض!

دخلنا السينما وجلسنا على الكراسي منبهرين. أغان تصدح وصور

وملصقات وأنوار شبه خافتة.. وفجأة أطفئت الأنوار فقمت مع زميلي لنغادر المكان لكن المرحوم الحبيشي أمرنا بالجلوس.

* * *

من حكايات المناضل الأستاذ «أحمد المروني» أنه عندما وصل إلى عدن مع أول بعثة يمنية إلى العراق في الثلاثينيات دخل مع رفاقه سينما «مستر حمود» لأول مرة في حياته. بهروا بالملصقات الملونة وصور الممثلين والأغاني القديمة «لفريد الأطرش» والإضاءة الساطعة، وفجأة أطفئت الأنوار فقام مع رفاقه للخروج من السينما ظناً منهم بأن ذلك كان كل شيء.

الحالة نفسها.. الانبهار نفسه.. والدهشة نفسها التي مرت بي وبزميلي!

القطار

كانت في انتظارنا أمام الفندق عربة (كارو) فخمة يجرها حصان أشهب تتدلى على صدره قلادات نحاسية، بعضها فضي، وأجراس ونواقيس صغيرة صفراء اللون... و(عثكال) من ريش الطاووس أو النعام فوق رأسه وما بين أذنيه مرفوع (بأبهة). كان الحصان رائعاً يشبه حصان الإمام أحمد (الرعد) المشهور الذي كان يصول به ويجول وسيفه بيده اليمنى في ميدان العرضي بتعز!

ركبت مع زميلي، وبجوارنا المرحوم حسن الحبيشي العربة (الكارو) التي ستنقلنا إلى محطة ميدان «رمسيس» القريبة من الفندق... بعد أن وضع حقائبنا بواب الفندق ذو الطربوش الأحمر متمنياً لنا رحلة سعيدة ماداً يده اليمنى حيث وضع مرافقنا المرحوم حسن الحبيشي عدة نقود صغيرة فيها!

كان صاحب العربة (العربجي) قد همز حصانه وتحرك بوقع أقدامه المنتظمة على إسفلت الشارع وسوطه مرفوع على يمينه.

كان (العربجي) في المقدمة وظهره إلينا. ابتسمت وكدت أضحك فرحاً بأنه يضع على رأسه الطربوش الأحمر (بعثكاله) الأسود!

لاحظ مرافقنا المرحوم حسن الحبيشي ذلك... وجذبني إليه باسماً وقال:

- يا بني .. لا تدهش لأن بواب الفندق أو (السفرجي) أو (العربجي) يضعون على رؤوسهم الطرابيش بعد أن كان الملك «فاروق» والباشوات والوزراء يضعونه على رؤوسهم في العهد الملكي البائد!

صمت قليلاً ثم قال:

- عندما قام جمال عبد الناصر بالثورة وقضى على الملكية والإقطاع والاستعمار والباشوات منع لبس الطرابيش لأنها رمز للماضي.. ثم سمح بها ليلبسها (العربجية) وبوابو الفنادق و(السفرجية) والمترجمون في الأهرامات من أجل السياح الأجانب نكاية بالملك والباشوات. هل فهمت هذا!

* * *

عالم عجيب ومدهش يفرض على أي إنسان أن يدقق النظرة في كل شيء يراه صغيراً كان أم كبيراً، وبالذات على يافع مثلي قدم من أدغال التخلف وكهوفها ونجا بأعجوبة من الموت والأمراض والجهل!

صعدنا درجات طويلة جداً من الرخام إلى بوابة المحطة الكبيرة الضخمة بعقودها وزخارفها العربية الأندلسية ودخلنا منها إلى بهو

صالة كبيرة بأرصفتها المبلطة على مد البصر وأصوات صفارات القطارات القادمة والمغادرة:

ما أشبه هذه القطارات بحشرة (الحلبيان) ذات اللون الأسود التي نراها في طرقات مزارع قريتنا بألف رجل حمراء تتموج!

قطع لنا مرافقنا التذاكر وانتظرنا على الكراسي لمجيء قطار (الصعيد). عالم مكتظ في المحطة الكبيرة ما بين مسافرين ومودعين بألبستهم المتنوعة من بدلات أو جلابيب وباعة يحملون جميع المشروبات والمأكولات الخفيفة وصياحهم يعلو ليطغيِ على هدير محركات القطارات.

* * *

أقبل القطار وأطلقت عدة صفارات تنبىء بمقدمه والدخان ينبعث من مدخنته. أشعرنا مرافقنا بأن نستعد على الرصيف الخاص بقطار الصعيد.

لم أكن أتوقع أن القطار بهذا الطول. كنت أعتقد أنه بحجم (موتر الرصابي) في تعز أو أكبر منه أو أضعاف موتر محمود (العنترناش) المشهور! لكنه كان أطول.. أطول بكثير!

ألم أقل لكم بأن الأشياء التي كنت أتخيلها صغيرة أصبحت الآن بالواقع كبيرة، كبيرة جداً!

* * *

فتحت أبواب عربات القطار وصعدنا مع مرافقنا المحترم وجلست مع زميلي على كرسي عريض وجلس أمامنا مرافقنا وبجواره أحد المسافرين (الصعايدة) الذي تبادل معنا التحية:

ـ سلامات .. سلامات .. ورايحين الصعيد تعملوا إيه؟

وشرح له مرافقنا ... فدهش قائلا:

ـ يا خبر .. إنتو من اليمن..! بلد الجدعان. مالكم كده نحاف وقصيرين؟ هو بتاعكم «الريّس» ما بيوكلكمش خالص وإلاّ إيه؟

* * *

بدأ القطار بالتحرك بعد أن دوت صفارته وتناهى إلى مسامعنا هدير عجلاته الحديدية ببطء ثم ارتفع صوت إيقاعها بعد خروجه من المحطة... وانتظمت موازية لسرعته الرهيبة.

درت بجسمي كله أنظر من نافذة القطار نحو الحقول الخضراء على مدى البصر وخيوط الكهرباء والتلفونات تعلو وتهبط بانتظام. وعلى ضفاف النيل والترع قرى كثيرة مبعثرة بيوتها من الطين. الفلاحون وجواميسهم السوداء.. والسواقي والنواعير و(الطنابير) وطيور (أبو قردان) البيضاء بأعناقها وأرجلها الطويلة التي قرأت عنها في كتاب «القراءة الرشيدة» بأنها صديقة الفلاح المصري!

عدت إلى وضعي السليم وأرحت ظهري. لكنني مازلت أنظر إلى النافذة بلا ملل. ابتسمت وأنا أذكر ما قرأته في كتاب «القراءة الرشيدة» عن الطالب الذي كان مسافراً في رحلة على القطار وعندما نظر من نافذة القطار طار طربوشه من على رأسه.

لاحظني مرافقنا المحترم وأنا أنزل شنطتي من على الرف وأفتحها وأخرج منها ذلك الطربوش الذي شغفت به وألقيته من نافذة القطار!

ضحك لذلك، كما دهش بقية المسافرين المجاورين لنا، واسترخيت أنا على مقعدي مبتسماً مغمض العينين كأنني أزحت جبلاً من على ظهري أو من على «رأسي»!

الباخرة

في نهاية صيف عام ١٩٦٠م سمح الإمام أحمد بخروج جميع الطلبة اليمنيين لقضاء إجازاتهم بين ذويهم في اليمن بعد سنوات من مراجعته المتكررة من قبل السفارة اليمنية بالقاهرة ومن الشخصيات الاجتماعية ومن المقربين إليه ولم يبقَ إلاّ مراجعته من الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي والصليب الأحمر وجمعية الرفق بالحيوان!

لم أكن مستعجلاً لقضاء الإجازة في اليمن، فلم يمض عليَّ سوى عامين فقط، لكن الأخبار التي وصلتني من قادة الاتحاد اليمني بالقاهرة (الزبيري ـ النعمان) كانت تفيد بأن والدي «أول الثائرين» كان قد تمرد من جديد على الإمام إثر مقالات نقدية للأوضاع في الصحف الصغيرة بتعز (سبأ) و(الطليعة) أما الزملاء الآخرون فكان منهم من انقطع عن أسرته عشر سنين وربما أكثر من ذلك.

كان الطلبة اليمنيون (الوافدون) في ثلاث بعثات متفرقة على عدة مدن أهمها (حلوان) ومدينة (بني سويف) و(طنطا) ومدينة القاهرة (لاضغلي) وأكثرهم كان على حساب مصر (الوافدين).

كانت مدينة القاهرة هي نقطة التجمع، بعثة (بني سويف) وبعثة (طنطا) وضعتنا معاً في لوكندة رثة حقيرة في وسط (البلد). كان إفطارنا فولاً مدمساً مع قرص من (العيش) وغداؤنا فاصوليا بيضاء مع قرص من العيش وعشاؤنا قطعة من الجبن البيضاء مع قطعة بصل ورغيف عيش. تكدسنا في الغرف، كل غرفة يحتلها خمسة أو أكثر. كانت حشرات (الكتن) البق تتساقط من سقف الغرفة كأنها جنود من فرق المظلات العسكرية تهبط علينا بالبراشوت فنظل ساهرين نحرق بعضها بالصحف المشتعلة دون فائدة!

أما طلبة بعثة (حلوان) فقد كانوا كما علمنا بعد ذلك في أشهر فنادق القاهرة المطلة على نهر النيل.

* * *

عندما التقينا نحن طلبة بعثة (بني سويف) بطلبة بعثة (طنطا) شعرنا بأننا نعرف بعضنا بعضاً من عشرات السنين. وخففت (مجابراتنا) وضحكاتنا وعناقنا لبعضنا بعضاً الحالة البائسة والحشرات الضارية والتغذية الحقيرة التي عانيناها معاً في (لوكندة) وسط البلد. وكان من أحد العوامل التي خففت نكد المأساة أيضاً أننا علمنا بأن النجم المشهور الكابتن (علي محسن) كان مسافراً معنا على الباخرة نفسها وكان علي محسن في ذلك العام يعد أشهر لاعب كرة قدم شهدته مصر وكان في نظرنا أشهر من نجوم (هوليود) بل وأشهر من زعماء أوروبا وأميركا والعالم.

في ميناء السويس اتجهنا بحقائبنا نحو رصيف الميناء. كنت مشتاقاً فعلاً لرؤية البواخر والسفن التي لم أكن أعرف عنها شيئاً. كانت أمامي ونحن نسير على الرصيف عشرات البواخر العملاقة كأنها مدن وحصون وناقلات وعابرات كالجبال الرواسي يصعد المسافرون إليها بعدة سلالم طولية حتى يصلوا إليها. تعبنا من السير على أقدامنا وراء المراقبين نبحث عن باخرتنا التي ستنقلنا إلى الوطن وفجأة وجدناها قابعة بين تلك السفن والبواخر والناقلات العملاقة، صغيرة جداً كسمكة صغيرة لاصقة بجسم حوت عملاق. ولم نصعد إليها كباقي السفن بل هبطنا إليها!

ومع ذلك فقد كان انبهاري ودهشتي بها لا حدَّ لهما. كان اسمها (المعز) يملكها كما قيل لي (التاجر المحظوظ والطاغية)! لم تكن مخصصة لنقل المسافرين (البني آدم) بل لنقل الجلود والحيوانات

وبالذات الأغنام والمعيز وإذا سمحت حمولتها لنقل مواد البناء من إسمنت وحديد. وكان مداها المفروض هو التنقل ما بين ميناء اليمن وموانيء الحبشة والسودان وجيبوتي فقط. وعلمنا بعد ذلك أن الإمام قد أمر بتوجهها من أحد موانيء السودان لنقلنا فوق ما تحمله من السويس إلى الحديدة.

* * *

وضعنا حقائبنا على سطحها حيث كانت شبه أفرشة مهترئة غبراء (دبراء) من بقايا شوالات أو أكياس سم الجراد منتشرة بعشوائية. وألقينا بأنفسنا عليها غير آبهين بوهج الشمس الحارقة وحرارة الصيف. لا أذكركم كان عددنا، ربما مائة وسبعين طالباً أو ربما أقل من ذلك. أما أبناء الأمراء والنبلاء الذين وضعوا في الكابينات الخاصة فعددهم ربما كان عشرة طلاب أو أكثر أو ربما أقل من ذلك، لا أدري لأننا لم نرهم إلاّ عندما كانوا يطلون من نوافذ (الكابينات).

لم يكن أمامنا سوى أن نرتب أمورنا. الأكثر كانوا على الجانبين. رؤوسهم إلى الداخل وأرجلهم إلى حافة الممرات المطلة على البحر من الجانبين. والأقل هم الأصغر سناً في الوسط بين الآخرين على الطول وغير متلاصقين. كلّ حقيبته عند رأسه أو بجانبه. وضعتُ حزمة من قصب الذرة الخاص بغذاء المعيز تحت رأسي ووضعت (المناشف) و(الفوط) فوقها بدلاً من المخدة كما فعل كل الزملاء الآخرين.

كم كانت فرحتنا بعشرات المعيز معنا على السطح، ألواناً وأشكالاً، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً.

كان في مقدمة الباخرة حمامان من الحديد، وعلى سطحها مساحة

مثلثة على جانبيها فوهتان (للهلب) كابح السفينة. حمدنا الله على أن صفارة (المعز) تشبه صفارات السفن الكبيرة في الميناء عندما بدأت إحدى القاطرات بالخروج من الميناء. كانت أكبر من (المعز) حجماً وبحارتها يضحكون على هذه الباخرة (القزم) التي يشدونها. عندما خرجت (المعز) بسلامة من تلك (الضياح) العملاقة كانت صفارتها تعلو وتزمجر مجدداً. قلنا لأنفسنا:

ـ (بدنا امصيت لا المظهر)!

* * *

بدأت باخرتنا (المعز) تمخر أمواج خليج السويس متجهة بنا إلى الوطن. تركت مكاني واتجهت نحو مقدمتها وتبعني الآخرون. كان هواء البحر منعشاً وكانت أمواج الخليج تتطاير رذاذاً يميناً وشمالاً وأنا أستقبلها برأسي وصدري وذراعاي مفتوحتان كأنني أحاول الطيران!

* * *

إن صورة الباخرة والأمواج والبحر والموانىء كانت شبه واضحة في مخيلتي كالطائرة والقطار وعربة (الكارو) الخ.

كنت أسمع في قريتي أغاني شعبية للنساء اللاتي شرد أزواجهن إلى ما وراء البحار هاربين من مظالم الإمام (يحيى) وابنه السيف (الحسن).. أغاني عن (الساعة) و(المركب) و(الهوري) و(السنبوك)..

يا مركب (البس) يا أبو دقلين

شاسري بك البر والبحرين

ورغم أن باخرتنا (المعز) كانت قزماً بجوار ما شاهدناه من بواخر وسفن عملاقة في ميناء السويس إلاّ أنني لم أكن أتوقع أن بها غرفاً

(كابينات) وحمامات ومطابخ قبطان وبحارة وكهرباء وراديو وطبيباً هندياً أيضاً!

ذكرني نظام التغذية في السفينة بنظام التغذية في المدرسة الأحمدية بتعز. كل مجموعة مخصص لها (قروانة) مكونة من رز ولحم ومرق.. وتنكة متوسطة من الصفيح للقهوة أو الشاي، و(قلاصات) فناجين من مخلفات علب الصلصة والمواد الغذائية الأخرى!

كان لكل مجموعة قروانة خاصة بها وكان المسؤول عن مجموعتنا هو الزميل الظريف الطيب عبد الرحمن فايع ـ ومعذرة من جميع الزملاء إذا ذكرت اسمه من بين أسماء الأحبة الزملاء والأصدقاء الآخرين الكثر!

* * *

في اليوم التالي ـ وما زلنا في نهاية خليج السويس ـ توقفت محركات الباخرة فجأة، ربما لعطل طارىء. كنا قد ألفنا هدير محركاتها وتعايشنا معه، لكن توقف صوت ذلك الهدير أزعجنا. وأصبح الموج يتقاذف السفينة ومياه البحر تقذف إلى السطح. حاول المسؤول عن (القروانة) ـ وكان يحملها فوق رأسه نازلاً بها من رأس السلم ـ أن يحافظ على توازنه لكنه في النهاية سقط معها في الممر مع تقيؤ الزملاء من دوار البحر. وكان يوماً «أغبر أدبر».. ومع ذلك لم يمنعنا من الضحك ولا الأغنام من الهرع بعنف لأكل محتويات (القروانة)!

لا أتذكر اليوم، ربما كان الثالث أو الرابع عندما شعرنا بتهامس ثم أصبح جلبة ثم شبه جمهرة كثيفة تتزاحم حول مقر الكابتن المشهور (علي محسن) نجم نادي الزمالك. هرع الطبيب الهندي إثر

استدعائه وكشف عليه.. أعطاه عدة حبوب من (الصلفاطة) التي لا يوجد سواها في صيدليته، لكنه كذلك نصح بأن يكون المريض في مكان غير سطح السفينة يقيه الشمس والرياح!

وفجأة سمعنا وقع أقدام سريعة هابطة على درجات السلم من غرف (كابينات) أبناء الأمراء السيوف والنبلاء. وإذا بشاب يأخذ الكابتن (علي محسن) طوال ما تبقى من الرحلة إلى ميناء الحديدة. كان هذا الأمير هو علي ابن الشهيد (سيف الحق) إبراهيم.

* * *

انبهرت لرؤية حيتان (الدولفين) التي كانت تتقافز أمامي وأنا منحن في مقدمة السفينة بحركاتها البهلوانية مطلقة ضحكاتها المحببة إلى القلب. ورغم شح الغذاء في السفينة في الأيام الأخيرة من الرحلة إلاّ أنني كنت حريصاً ـ وربما بعنف في بعض الأحيان ـ على أن أجمع أي بقايا من فتات الخبز (حاف) حتى ولو كان مما هو مقرر لي لكي ألقيه إلى أصدقائي (الدلافين).

* * *

كانت أكبر أزمة مرت بنا هي نفاد (السجائر) منا بعد أن يبست أقراص الخبز وانتهت شوالات الرز واللحم. وكنا قد فكرنا بذبح المعيز والأغنام لكنها الأخرى كانت تشكو مثلنا من الجوع فرحمناها.

كنا نتسابق إلى الحمامات في مقدمة السفينة لتدخين ما تبقى لنا من حبات السجائر، وبعضنا ينتظر خارج أبوابها ليلتقط ما رمي من مخلفاتها تماماً كما يفعل صبية (السبارس) في أرصفة شوارع القاهرة الذين يجمعون أعقاب السجائر.

بدأ النحول والاصفرار والهذيان والخيلان يصيبنا. وتأكدنا من ذلك

في منتصف ليلة مقمرة بصياح مفزع لزميلي الذي كان رأسه بجوار رأسي في الوسط. لقد خيّل إليه أن (تنيناً) انقشع عنه البحر واتجه برقبته الطويلة وفمه المفتوح نحوه ليأخذه بين أسنانه إلى غياهب البحر. أصابتنا تلك الصرخات بالأرق وأفزعتني كما أفزعت الزملاء وأسهرتنا حتى الصباح.

* * *

حاول زعماؤنا الكبار في الأيام الأخيرة أن يغذونا بالخطب الحماسية وبتوزيع الكتب الرنانة لكي ننسى الجوع والمرض والخمول.. دون جدوى. وبعد ستة أيام بالكمال والتمام دوّت صفارة الباخرة (المعز) مدوية تبشرنا بأننا على مشارف مدينة الحديدة. تجمعنا بفرحة على حافة السفينة وشاركتنا المعيز والأغنام بأصواتها الفرحة مثلنا أيضاً.

* * *

كنا نتوقع أن تدخل بنا الباخرة (المعز) إلى ميناء الحديدة، لكنها توقفت على بعد مسافة كبيرة لم تتح لنا أن نميز ملامح مدينة الحديدة سوى أربع عمارات بيضاء من دورين على الساحل فقط بناها الخبراء السوفيات. خلع بعض الشبان ملابسهم بفرح رغم الجوع والمعاناة وبدأوا بالقفز من مسافات قريبة إلى البحر ثم من مسافات أعلى ثم صفّي التنافس بين زميلين للقفز من أعلى قمة في السفينة بين تصفيق الجميع وتشجيعهم.

طال الانتظار.. وبدأت همسات الطلبة تعلو تدريجياً مع الجوع والإرهاق لتصبح أناشيد حماسية بأصوات عالية تكاد تصل إلى ساحل المدينة ويكاد يسمعها الإمام «أحمد» وحاشيته والمواطنون أيضاً. كان هذا الانتظار فرصة لزعمائنا الثلاثة الكبار البعثي

والقومي والإخواني، للخطابة المركزة على مظالم الإمام وعلى التخلف وعلى النظام الملكي الرجعي والمناداة بالثورة والجمهورية والتقدم الخ.

كنا نصفق بحماسة شديدة وبهتافات قومية عربية وحدوية وأناشيد ثورية.. الخ. ولم تكن خطب زعمائنا الثلاثة متباينة، بل كانت تصب في إناء واحد. ولم تكن هنالك حساسية أو حقد أو تنافس أو عداء بل كانوا باسمين لا يكفر أحدهم الآخر. كان الهدف هو الثورة.. الجمهورية والوحدة.

* * *

بعد برهة سمعنا صوتاً مدوياً لقارب تجاري شبيه (بيخت) هزيل يقترب من الباخرة (المعز). كنا قد تأهبنا، كل بشنطته.. لكن القارب الشبه (يخت) كان قد رسا بجوار الباخرة (المعز).

فجأة سمعنا وقع أحذية (مزايطة) تنزل من درجات الغرف العلوية إلى سطح السفينة. إنهم الأمراء أبناء(السيوف) وقد ارتدوا العمائم الحريرية (بالعذائب) المتدلية إلى الوراء (الأجواخ) و(الجنابي) المنقوشة بالذهب وقد حمل العكفة حقائبهم إلى داخل اليخت. كنا ننظر إليهم بانبهار ودهشة لما يلبسونه، لكنهم لم ينظروا إلينا مطلقاً. شيعناهم ويختهم بنظرات عدائية تحولت إلى حقد وكراهية غمرت قلوبنا حتى كتابة هذه السطور!

طال انتظارنا رغم الجوع والإنهاك وشماتة القبطان الأوروبي ومساعديه وبلاهة الطبيب الهندي بحالنا، وتفاعل البحارة اليمنيون بحماسة معنا.. يودون بعد رحيلنا أن يغرقوا السفينة بمن فيها إلى أعماق البحر!

لمحنا قدوم (ساعية) شراعية متجهة إلى باخرتنا (المعز). هللنا فرحين بمقدمها السعيد لتقلنا إلى مدينة الحديدة العاصمة الشتوية للإمام أحمد وحاشيته..!

اقتربت (الساعية) ولاصقت جسم الباخرة (المعز). كان علينا أن نرمي حقائبنا إلى سطحها ثم ننزل. كان القبطان الأجنبي ومساعداه وبجواره الطبيب الهندي الساذج ينظرون إلينا من نوافذ كابينة القيادة وهم يضحكون بسخرية بينما كان معظم بحارتها (اليمنيين) يساعدوننا على النزول تكاد أفئدتهم تتمزق حزناً وألماً!

عندما قذفنا بحقائبنا إلى الساعية كانت الحقائب الحديدية تحدث خروقات شنيعة بالحقائب الجلدية.. وهبطنا إلى (الساعية) بطرق عشوائية.

* * *

تحركت (الساعية) الشراعية وكادت حبالها تغرق الزميل (عبد الحميد الطوقي) بعد أن كسرت نظارته الطبية! لم يكن بيننا وبين ماء البحر سوى عشرة سنتيمترات أي (نصف شبر) تكاد تشرف على الغرق بما تقله من طلبة بحقائبهم ومن المعيز أيضاً.

ابتعدت الساعية بنا عن الباخرة المعز. كان القبطان مع مساعديه والطبيب الهندي الأبله قد تجمعوا على متن الباخرة يضحكون ويلوحون بأيديهم بإشارات وقحة تهزأ بنا. كان رد الجميع على هذه التحية بمثلها أو أحسن منها.. برفع الأحذية والتلويح بها!

واقتربت (الساعية) من ميناء الحديدة ونحن نتزاحم لرؤيتها لأول مرة. لم يكن هناك أثر لمدينة بل بيوت و(عشش) هادمة كأنها مقبرة.

وتوقفت الساعية بنا فجأة حيث أخبرني (ربانها) العجوز بأنها لا

تستطيع الوصول إلى (دكة) الميناء وأنه لم يستطع (إعانتها بالقرب).

* * *

فجأة سمعنا جلبة تتراكض نحونا بين أمواج الساحل لرجال سود البشرة (أخدام) شبه عراة مندفعين نحونا وقد طوقوا (الساعية) من كل جانب يطلبون أن يحملونا على رقابهم مع حقائبهم، فقد اعتادوا ذلك أباً عن جد منذ سنين عديدة، مقابل أجر رمزي!

لم نكن نتوقع ذلك مطلقاً. وامتنعنا عن فعل ذلك خصوصاً بعد أن انبرى زعيمنا (البعثي) المهاب بخطابه المؤثر مطالباً بأن نقفز إلى البحر مع حقائبنا.. وإنه من العار أن نركب فوق (بني آدم) يمانيين ونحن الذين تعلمنا في مدارس وجامعات مصر الحرية والمساواة والعدالة!

واندفع البعض منا بحقائبه إلى البحر وكادوا يغرقون لولا إنقاذ (الأخدام) لهم، فما كان من الزعيم إلاّ أن رضخ للأمر فقال (أمرنا للّه) فكانت إشارة خضراء منه لنا وللأخوة الأخدام الفرحين!

وتعلقت برقبة أحدهم ممسكاً بيدي اليمنى حقيبتي التي أصابها الهزال مثلي من جراء تلك الرحلة. وعند (الدكة) اتجهنا نحو دار الضيافة حيث قيل بأننا سننزل بالدور الأسفل. كانت الوجوه التي تجمعت بحشد كبير على رصيف (الدكة) شاحبة كأنها تعاني سكرات الموت. ذكرني ذلك بسذاجة قول الصعيدي لنا على قطار الصعيد (مالكم كده نحاف وقصيرين هو بتاعكم «الريّس» ما بيوكلكمش والاّ إيه..؟!).

المؤلف

زيد مطيع دماج

قاص وروائي يمني من مواليد ١٩٤٣

صدر له:

طاهش الحوبان (مجموعة قصص)

العقرب (مجموعة قصص)

الرهينة (رواية) صدرت عن شركة رياض الريّس للكتب والنشر - بيروت ١٩٩٧.

فهرس عام

زيـد مطيـع دمّـاج

الانبهار والدّهشة

بعد مجموعات قصصية ورائعة روائية هي «الرهينة» للكاتب اليمني زيد مطيع دمّاج، يقدم لنا المؤلف في هذا الكتاب ما يشبه المذكرات التي تتداخل فيها السيرة الذاتية بسيرة المكان والزمان من حضارة وسياسة عبر جزأين، أحدهما يتناول انطباعات ابن القرية عن «تعز» عاصمة اليمن طوال حكم الإمام أحمد. والجزء الآخر عن رحلته إلى مصر عبد الناصر، للدراسة.

في كتاب «تعز» قلاع وفقر وأمراض وسحر ومقاهٍ وسيف الإمام يهوي على رقاب الأحرار.

وفي كتاب «القاهرة» رحلة الاكتشاف الأولى لعالم جديد ومبهر، بدءاً من نهر النيل إلى القطار والباخرة والطائرة والسينما، بحيث تصبح حياة المؤلف هنا سلسلة من المفاجآت المتلاحقة.




1855134802